دراسات إسلامية
مجلة علمية سنوية محكمة
العدد الرابع عشر / ١٤٤٣هـ /٢٠٢٢م

مقومات الحضارة الإنسانية " رؤية قرآنية "

د. صلاح الدين عوض محمد إدريس

أستاذ مشارك بكلية القرآن الكريم ، الجامعة القاسمية ، الشارقة ، الإمارات العربية المتحدة

يصدرها قسم الدراسات الإسلامية ، كلية الآداب ، جامعة الخرطوم

(٤٧ - ١٠٠)

المستخلص :

يهدف هذا البحث إلى تحديد وبيان أهم مقومات الحضارة التي وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية ، وكيف فهمها العلماء المميزون الربانيون الفطنون من هذه الأمة فقدموا أنموذجاً أسعد البشرية حيناً من الزمان.

وقد اتبع الباحث المنهجين الاستقرائي والتاريخي لإبراز مقومات الحضارة من وجهة نظر القرآن الكريم ، التي في مقدمتها فهم القرآن الكريم فهماً صحيحاً ، وإدراك معنى ذكر الله بصورة شاملة وعميقة تصبغ كل أوجه الحياة ، مع الجمع بين العلم والعمل ، والتخلص من الفهم المنحرف لمعنى العلم.

وقد توصل الباحث إلى جملة من النتائج من أهمها : أن القرآن الكريم لا يفصل في رؤيته للحياة البشرية بين علوم الشريعة وعلوم الكون ، بل يرى أن كل علم يورث الخشية واليقين فهو من علم الآخرة ، ومنها : أن مصطلح ذكر الله لا ينحصر في اللسان بل يشمل كل جوانب الحياة والعقل والقلب والروح. وعدم الفصل بين العلم والعمل ، وأن العلم بمعناه الواسع هو من مقومات الحضارة التي تحقق السعادة للبشرية في الدنيا والآخرة.

الكلمات المفتاحية : مقومات الحضارة ، الرؤية القرآنية ، الذكر ، العلم والعمل ، الإصلاح.

Abstract :

This research aims to identify and clarify the most important components of civilization that were mentioned in the Noble Qur'an and the Sunnah of the Prophet, and how the distinguished and astute scholars of this nation understood them and presented a model that resulted in happiness for humanity at some point of time.

The researcher followed the inductive and historical approach to highlight the components of civilization from the Holy Qur'an perspective, foremost of which is the correct understanding of the Holy Qur'an, and the realization of the meaning of praising God in a comprehensive and profound manner that covers all aspects of life, in addition to combining

science and work, and getting rid of the deviant understanding of the meaning of science.

The researcher reached a number of results, the most important of them are : The Holy Qur'an does not separate in its vision of human life between the sciences of Sharia and the sciences of the universe, but rather sees that every science begets fear and certainty is from the knowledge of the hereafter, and that the term praising God is not limited to the tongue, but includes all Aspects of life, mind, heart, soul. And that knowledge in its broad sense is one of the elements of civilization that achieve happiness for mankind in this world and the hereafter.

key words : The components of civilization, Qur'an vision, praising God , knowledge & work , reform.

مقدمة :

اقتضت سنة الله في مجال الحياة أن يضع مقومات وقوانين وأسساً تؤدي إلى بناء الحضارة الإنسانية على أصول الوحي ، وفي مقدمتها القرآن الكريم الذي سلم من التحريف والتبديل ، والذكر بمعناه الواسع ، والجمع بين العلم والعمل.

وعليه فإن هذا البحث يعرض لتوضيح وبيان تلك المقومات ، وكيف نجحت في صدر الإسلام ؟ ولماذا أخفقت في فترات زمنية ؟ وكيف يمكن أن تساهم اليوم في بناء الحضارة الإنسانية التي اتخذت طابع الكونية ؟

أهداف البحث :

يهدف البحث إلى تحقيق التالي :

أولاً : تحديد النصوص الدينية من الكتاب والسنة التي ترسم ملامح مقومات الحضارة.

ثانياً : بيان تفسير علماء الإسلام لهذه النصوص بمختلف مذاهبهم الفقهية والعقدية ومدارسهم السلوكية.

ثالثاً : الإشارة إلى سبب النجاح والإخفاق في مساهمة هذه الأمة في بناء الحضارة الإنسانية.

منهج البحث :

اتبع الباحث في هذه الدراسة المناهج : الاستقرائي والتاريخي والوصفي ، واعتمد على أساليب
التفسير الموضوعي والتحليلي والمقارن.

التمهيد :

مفهوم الحضارة وتعريفه لغة واصطلاحاً.

أولاً : تعريف الحضارة لغة :

قال ابن القوطية : **" وحضر الشيء حضوراً : ضد غاب ، وحضرته ، والإنسان حضارة : سكن الحاضرة "**.[1]

ثانياً : تعريف الحضارة اصطلاحاً :

قال جورج عطية : لفظ **" الحضارة "** من الألفاظ التي اختلف الباحثون حوله ، ولعله خضع بدوره للثقافة والبيئة والأحوال الاجتماعية والاقتصادية للمفكرين والفلاسفة الذين قاموا بتعريف الحضارة فكثيرًا ما تعكس الأفكار والنظريات ظروف العصور وأحوالها إما تأييدًا أو معارضة أو تعديلاً ويمكننا طرح وجهتي النظر الرئيسيتين حول تعريف الحضارة كما يأتي :

أحدهما : تعنى بطرق الثقافة والقيم الأخلاقية والآداب والفنون.

والأخرى : تعنى بالمنجزات والأعمال التي حققها الإنسان في مجال التشييد والبناء والإنتاج الصناعي والزراعي ، أو بعبارة أخرى **" التكنولوجيا "** ، أي : استخدام النتائج المكتشفة بالتجارب العلمية في مجالات الحياة المختلفة والاستفادة منها.[2]

---

(١) ابن القوطية ، كتاب الأفعال ، تحقيق: علي فودة ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٩٣م ، ص ٤١.

(٢) د. جورج عطية ، من حضارتنا ، مكتبة الملك فهد الوطنية ، ط١ ، ١٩٥٦م ، ص ١٦.

حدد الإسلام عدة وسائل لتزكية النَّفس بكل جوانبها المتعددة ، في شكل عبادات وشرائع وفروض ، وكان لهذا التعدد هدفه وغايته ؛ كي تسير النَّفس إلى الله في كل ميادين الحياة ، عاكسة تزكيتها في شكل إصلاح في الأرض ، وبناء للحضارة الإنسانية انطلاقاً من قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢].

وفي مقدمة هذه الوسائل ، القرآن والذكْر والجمع بين العلم والعمل فهماً وسلوكاً ، ولقد حققت هذه الوسائل منهج التزكية والإصلاح على امتداد الحياة البشرية ، متمثلة في الأنبياء وأتباعهم ؛ وما أصاب الحضارات والأمم والشعوب من فساد وشقاء ، كان بسبب تجاوز هذه الثوابت التي دعا لها كل الأنبياء.

فالإسلام دين الرحمة ، ولهذا عدد وسائل تزكية النَّفس والسير إلى الله ، ولكنَّه رتب هذه الوسائل ، ومن الفقه ألا يكتفي المرء بمعرفتها جملة ، دون معرفة أيها حسن وأيها أحسن ، فإنَّ الذي يهتم بالأحسن يكون سباقاً في الطريق, والذي يفعل الحسن يفوته فعل الأحسن ، وهذا في حد ذاته مقصد من مقاصد الشيطان ؛ كي لا تبلغ التزكية والتطهر والإصلاح الغايات العليا.

المبحث الأوَّل

دور الوحي في بناء الحضارة الإنسانية.

يمثل الوحي المقوم الأساسي لبناء الحضارة الإنسانية عبر التاريخ البشري ، وكل حضارة تهلك فبسبب إبعاد الوحي وتعاليمه عن كل أوجه الحياة ، ويعد كل من عصر النهضة والتنوير والحداثة أخطر العصور التي حرصت على إبعاد الوحي- خاصة القرآن الكريم- من أن يكون له دور في بناء حضارة العصر.

وكانت النتيجة ظهور عصر ما بعد الحداثة الذي يسعى إلى إيجاد دور للدين في بناء الحضارة الإنسانية بعد الفشل في تحقيق السعادة للبشرية ، وتجري الآن بين مفكري العصر مقاربات لتحقيق ذلك. ويمثل القرآن الكريم الذي عصم من التحريف مقوماً أساسياً

لبناء الحضارة الإنسانية المتوازنة في هذا العصر ، ويمكن الوقوف على ذلك من خلال المطالب الآتية :

المطلب الأول :

فضل القرآن الكريم وآداب سماعه .

وردت نصوص كثيرة تدل على فضل وأهمية القرآن الكريم في بناء الحضارة الإنسانية التي تحقق للبشرية سعادة الدارين ويتمثل ذلك في الآتي :

أولاً : فضل القرآن :

يرى سفيان الثوري أنَّ قراءة القرآن هي أفضل أنواع الذكْر إذا عمل النَّاس به ، والعلة في ذلك ؛ لأنَّه مشتمل على جميع الذكْر من تهليل وتكبير وتحميد وتسبيح وتمجيد ، وعلى الخوف والرجاء والدعاء والسؤال والأمر بالتفكير في آياته والاعتبار بمصنوعاته ، فمن وقف على ذلك وتدبره ، فقد حصل على أفضل العبادات ، وأسمى الأعمال والقربات.[٣]

يفهم من كلام سفيان الثوري أن الاعتبار بمصنوعات الله يدخل في معنى الذكر ، وهذا يشمل كل العلوم والمعارف الطبيعية من فلك وطب وهندسة وغيرها ؛ لأن الوقوف على حقائقها يقود إلى رؤية وإدراك تجليات معاني وآثار أسماء الله وصفاته في أفعاله ومفعولاته في هذا الوجود.

ويرى ابن تيمية أن في قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ** ﴾ [غافر : ٣٤] إشارة إلى أن من علم بهذا القرآن ولكنَّه ترك العمل به وعمل بخلافه فإنَّه يكون من أهل التجبر والتكبر الذين مصيرهم القصم والهلاك ، كما قال تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ**

(٣) ينظر ، القرطبي ، التذكار في أفضل الأذكار ، تحقيق ، عبد القادر الأرناؤوط ، دمشق ، ط٢ ، ١٣٩٢هـ ، ص ٣٨.

اللهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر : ٣٥] ؛ فإنَّ هذين الوصفين يجمعان العلم والعمل ، وأنَّ كل علم دين لا يطلبه صاحبه ويستمده من القرآن ، فنتيجة عمله الضلال ، ومثال ذلك علم الفلاسفة والمتكلمة والمتصوفة ، والمتفقهة ؛ وكل عالم استمد علمه من كتاب الله ، ولكِنْ لا يريد به الإصلاح في الأرض ، وإنَّما يريد به العلو والفساد في الأرض وتحصيل لذاته ، فإنَّ مصيره القصم.[٤]

يفهم من كلام ابن تيمية أن بعض علوم المسلمين التي تأثرت بالثقافات الأخرى المناقضة للوحي ومنها التصوف الفلسفي ضلت بسبب تقديمها العقل على الوحي وجعل العقل هو مركز العلوم والمعارف وأن النص الديني المعصوم المسدد للعقل القائد تبع للعقل ، وهذا ما وقع في كثير من العصور وأدى إلى التأويل المذموم الذي يطوع الوحي ليتوافق مع العقل ولو تعلق الأمر بقضايا الغيب التي لا يدركها الحس ولا العقل.

ثانياً : آداب سماع القرآن :

يذكر الإمام الغزالي بعض المظاهر الاجتماعية في عصره التي تصرف الناس عن التدبر والتفكر في آيات الله خاصة الكونية ، ويعد هذه المظاهر تنافي آداب سماع القرآن ، ومن ذلك إدخال ألحان الشِّعْر في القرآن بقصد جذب النَّاس إليه ، فإذا كانت هذه الألحان ، من مد للمقصور ، وقصر للممدود ، ووقف عند الكلمات والقطع والوصل ، تجوز في الشِّعْر ، فهي لا تجوز في القرآن ، إلا بالكيفية التي جاءت عن العلماء في التلاوة.

ومحاولة إدخال ذلك النمط من اللحن حرام أو مكروه ، ويحاول البعض أن يحسن تلك الألحان الخارجة من الحلق بمؤثرات خارجية ، مثل الضرب بالقضيب والدف ، وهو التَغْبِير الذي أشار إليه الإمام الشافعي ، كل ذلك لإثارة الوجد الضعيف الذي لا يستثار إلا بمجموع هذه المؤثرات الصوتية ، فيرى الغزالي في كل ذلك ، إهانة لكتاب الله ، لأنَّ مثل هذه المؤثرات ترتبط في ذهن العامة ، باللهو واللعب ، فكيف يخلط ذلك بالقرآن الذي

---

(٤) ينظر ، ابن تيمية ، الاستقامة ، تحقيق: محمد رشاد سالم ، جامعة الإمام محمد بن سعود ، المدينة المنورة ، ط١ ، ١٤٠٣هـ. ١/ ١٧.

يقوم على الجد ؟ ؛ ويذكر الغزالي مظهراً آخر في عصره ، يرى فيه إهانة للقرآن وعدم توقير له ، وهذا المظهر هو ، قراءة القرآن في الشوارع ، أو في حالة الجنابة ، أو الجمع بين القرآن وضرب الدف في الأعراس.(٥)

يرى الباحث ان هذه المظاهر- التي لا تزال موجودة إلى يوم الناس هذا- هي التي حرمت البشرية من التدبر في كتاب الله واتخاذه منهج حياة ، وقد تعددت وتفننت هذه المظاهر مع عصر التقنية الحديثة.

ويرى الغزالي أن المنهج الصحيح في التعامل مع القرآن الكريم في حالة السماع ، هو منهج أبي بكر الصديق الذي كتم وجده وضبط جوارحه من الحركة رغم قوة الوارد ، عندما رأى قوماً حديثي عهد بالإسلام بكوا بكاء شديداً ، عندما سمعوا القرآن بسبب الوجد ، فقال : **" هكذا كنا حتى قست قلوبنا "** ، ويعني بقسوة القلوب ، قوة وشدة القلب حتى صار مطيقاً لملازمة الوجد في كل الأحوال ، ولا يتوقف على سماع.

وهذا ما عبر عنه الجنيد الذي اشتهر بالحركة في بداياته عند سماع الوجد ، ثُمَّ ترك الحركة ، وأجاب معترضيه بقوله : ﴿ **وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ** ﴾ [النمل : ٨٨] إشارة منه إلى أنَّ القلب مضطرب جائل في الملكوت ، والجوارح متأدبة في الظاهر ساكنة. وكلما ضعفت القوة بسبب تقدم السن ، ظهر الوجد على الجوارح ، فيحكي أبو الحسن محمد بن أحمد ، بأنَّه صحب سهل بن عبد الله ستين سنة ، فما رأى عليه تأثيراً عند سماع الذكْر أو القرآن ، ولكِنْ في آخر عمره ، كاد يسقط عندما سمع رجلاً يقرأ قول الله تعالى : ﴿ **فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** ﴾ [الحديد : ١٥] ، فعندما سأله ، علَّلَ ذلك بسبب الضعف الذي اعتراه ، عندما تقدمت به السن.(٦)

---

(٥) ينظر ، الغزالي ، إحياء علوم الدين ، دار المعرفة – بيروت ، ٢/ ٣٠٠.

(٦) ينظر ، الغزالي ، المصدر نفسه ، ٢/ ٣٠٣.

ويفهم من كلام الغزالي واستشهاده بحال الصحابة والصالحين أن الأصل هو التدبر في ملكوت الله خاصة الآيات الكونية وليس اضطراب حركة الجوارح والبكاء فإن ذلك لا علاقة له بآداب السماع والانتفاع بالقرآن الكريم.

المطلب الثاني : موقف النَّاس من القرآن

يعد القرآن الكريم من أقوى مقومات الحضارة الإنسانية ، وقد أوضح بجلاء موقف الناس من الانتفاع به في التزكية والإصلاح فقسمهم إلى أصناف هي :

أولاً : المعرضون عن سماع القرآن تكبراً

قال تعالى : ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ** ﴾ [فُصِّلَت : ٢٦] ، يرى ابن عاشور أن الآية مقصود بها بيان حال المعرضين عن الدعوة المحمدية ؛ إذ إن رؤساء الكفار يزينون ويلقنون العامة أساليب الإعراض لعلمهم أن كل من يسمعه يعجب وينبهر بمعانيه وألفاظه وأساليبه فلا يملك إلا أن يتبع هذا القرآن الكريم ، وهذا هو منهج أهل الضلال والباطل في كل زمان ومكان لا يقابلون الحجة بالحجة بل بالإعراض والتشويش. بالشعر والرجز والمكاء والتصدية ورفع الصوت.(٧)

ويرى الباحث أن كثيرا من الملاحدة والزنادقة وبعض المستشرقين يتبعون أسلوب التشويش واللغو بالحجج الضعيفة ويتخيرون الروايات المكذوبة لصد الناس عن الوحي أن يكون مركزا للعلوم والمعارف وبناء الحضارة ، بل ينسبون كل أسباب التخلف في كل أوجه الحياة إلى الوحي خاصة القرآن الكريم الذي يزعمون أنه من تأليف محمد ﷺ.

فإذا كان اللغو في عصر التنزيل يتمثل في الشعر والرجز ورفع الصوت لصد العامة عن سماع القرآن الكريم فإنه اليوم يتمثل في مراكز البحوث والدراسات والموسوعات والمؤتمرات وغير ذلك لإبعاد الوحي عن التأثير في الحياة.

---

(٧) ينظر: ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، الدار التونسية للنشر – تونس ، ط١ ، ١٩٨٤ هـ ، ٢٤/ ٢٧٧ ، ٢٧٨.

ثانياً : السامعون دون فقه وفهم.

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [البقرة : ١٧١] ، يرى ابن عطية أن هذا الصنف يسمع الصوت ولكِنْ لا يفقه المعنى ، فعدم الفهم وعقل المعنى لا يرجع إلى الغباء والبلادة ، وإنَّما لعدم وجود الاستعداد النفسي لقبول النص مصدراً للعلم والمعرفة والإصلاح ، فهي حالة من البعد وعدم قبول الخير ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنعام : ٢٥].[٨]

وذهب ابن كثير إلى أنَّ الذنوب ، وفي مقدمتها الكفر ، هي الحجاب الغليظ الذي يمنع من الوصول إلى الإيمان والعلوم والمعارف المستكنة في الوحي ، بالرغم من الاستماع المتكرر ، قال تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [يونس : ٤٣]لقد نظروا في القيم المتولدة من الفهم وفي مقدمتها ، التؤدة والسمت الحسن والخلق العظيم ، وكلها تدل على النبوة ، وهي كافية لهداية أولي البصائر والنهي ، وبالرغم من رؤية هذا الصنف الذي يسمع ويرى كل ذلك ، لا تحصل له الهداية ، لأنَّ نظرتهم هي نظرة احتقار.[٩]

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٥] ، يرى السعدي أن هذا الحجاب هو ما يحجب عن

---

(٨) ينظر ، ابن عطية ، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد ، دار الكتب العلمية - بيروت

(٩) ينظر ، ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، تحقيق: محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، منشورات محمد علي بيضون – بيروت ، ط١ ، ١٤١٩ هـ ، ٢/٤١٩.

الإيمان والعلم والمعرفة ، وهو عقوبة لتكذيب المعرضين ، ويكون سماعهم من باب إقامة الحجة عليهم فقط.[١٠]

وقال تعالى : ﴿ **وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ** ﴾ [فُصِّلَت : ٥] ، يرى الشنقيطي أن السامعين يستمعون للقرآن دون فقه وفهم ، والسبب في ذلك جملة من الأسباب منها :

(١) أنَّ قلوبهم التي هي آلة الفهم والإدراك والعقل ، في أغطية وغلف ، تمنعها من الفهم والعقل ووصول العلوم والمعارف إليها.

(٢) الآذان التي هي طريق لمرور العلوم والمعارف إلى القلب ، فيها ثقل وصمم ، يمنع تلك العلوم والمعرفة من الوصول إلى القلب.

(٣) بينهم وبين رسول الله ﷺ حجاب يمنعهم من إبصار ورؤية الحق الذي جاء به.[١١]

فعلى فرض أنَّ قلوبهم خالية من موانع الفهم والعقل من أغطية وغلف ، فإنَّ الآذان التي هي بمثابة النهر الذي يمد القلب بالعلوم والمعارف ، فيها سدود من الثقل والصمم ، وكذلك النهر الثاني الذي يمد القلب بالعلوم والمعارف ، وهو البصر بينه وبين الحق حجاب ، وعليه فإنَّ كل وسائل العلوم والمعارف قد سدت.

ويذهب الشنقيطي إلى أن كثيراً من الآيات التي جاءت في القرآن التي قد يفهم من ظاهرها أنَّ كل هذه الموانع خلقة وجبلة ، ومن ثم لا يلامون على سماعهم وعدم فقههم أمر غير صحيح ، والصحيح هو إجماع علماء التفسير أنَّ قلوبهم في الأصل خلقت وجبلت على قابلية السمع والفهم والفقه والهداية ، ولكنهم عندما بادروا إلى الكفر والتكذيب بمحض إرادتهم وحريتهم ، كانت هذه الموانع جزاءهم على ذنبهم جزاء وفاقاً.[١٢]

---

(١٠) ينظر ، السعدي ، تفسير السعدي ، تحقيق: ابن عثيمين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.١/٤٥٩.

(١١) ينظر ، محمد الأمين الشنقيطي ، أضواء البيان ، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت – لبنان ، ط١ ، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ مـ ، ٦/٧

(١٢) ينظر ، المصدر نفسه ، ٨/٧ ، ٩.

وقال تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [محمد : ١٦] ، يرى الزمخشري أن هذه الصفة هي صفة أهل نفاق الاعتقاد إذ يسمعون ولكن لا يفقهون ، لأن سماعهم للنص يقوم على الاستهزاء وعدم المبالاة والتهاون ، وحتى سؤالهم للصحابة عما قاله رسول الله ﷺ قائم على الاستهزاء.(١٣)

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٢ ، ٢٣] قال ذلك بعد قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٠-٢١]

ذهب ابن تيمية إلى أن السماع ، الذي حرم الله منه الكُفَّار ، هو سماع الاستجابة ، لا سماع الصوت المجرَّد ؛ لأنَّ هذا السَّمَاع الصوتي المجرَّد لابد منه لكل أحد حتى تقوم الحجة عليه ، والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام : ١٩] ، و قال : ﴿ مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ١٥] ، والواقع يشهد أنَّ الكُفَّار حصل لهم السَّمَاع المجرَّد ، فهذا النَّوع من السَّمَاع لا ينفع صاحبه إلا إذا انتقل إلى سماع الفقه ، والاستجابة. وقد جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ أنَّه قال : **" من يرد الله به خيرا**

(١٣) ينظر ، الزمخشري ، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، دار الكتاب العربي – بيروت ، ط٣ ، ١٤٠٧ هـ ، ٤/ ٣٢٥.

يفقهه في الدِّين ".[١٤] ، فالآية والحديث يقفان شاهدين قويين على أنَّ **" سماع الفقه "** لا يحصل إلا لمن علم الله فيه خيراً وأراد به خيراً.[١٥]

ويرى الباحث أن هذه الطائفة غاية في الذكاء ولكن لعوامل نفسية ترفض مجرد السماع للوحي ، وتظهر في هذا العصر في طائفة المستشرقين الذين تمردوا على الكنيسة بسبب موقفها من النهضة واحتكارها المعرفة ، قد يكون منهم منافقون ، والخطأ الذي وقعت فيه بعض طوائف المستشرقين- بسبب هذا العامل النفسي- تمردوا على كل ما هو وحي من الله وأنكروا أن يكون هناك وحي بل هي ثقافات عامة جمعها الأنبياء من حضارات مختلفة ومزجوا بينها وانتخبوا منها ما ادعوا أنه وحي سماوي ؛ وكانت نتيجة هذا الإعراض والكفر حرمان البشرية من تأسيس حضارتها على العلم والمعرفة المستمدة من الوحي ، ولم يقتنعوا بهذا الواقع العلمي الذي تعيشه الشعوب المتدينة من سكينة وطمأنينة بل ينظرون إلى الجانب المادي من الحضارة.

ثالثاً : سماع الفقه دون سماع الاستجابة

يرى ابن تيمية أنه قد يحصل للمرء **" سماع فقه "** ، ولكِنْ يحرم من **" سماع الاستجابة والانتفاع "** ؛ وهذا حال اليهود الذين قال الله فيهم : ﴿ **مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا** ﴾ [النساء : ٤٦] ، فليس كل من سمع وفقه فيه خير ، لأنَّه قد يفقه ولا يعمل بعلمه ، فلا ينتفع بعلمه وفقهه ؛ وخير مثال لهذا ، القلوب المربوطة الغلفاء ، فهي و إنْ سمعت الخطاب و فقهته لا تقبله ، و لا تؤمن

---

(١٤) البخاري ، صحيح البخاري ، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر ، دار طوق النجاة **" مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي "** ، ط١ ، ١٤٢٢هـ ، كتاب العلم - باب العلم قبل القول والعمل ، ١/ ٣٩ ، حديث رقم: ٧٣١٢

(١٥) ينظر ، ابن تيمية ، كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في التفسير ، دار ابن الجوزي ، ط١ ، ١٠/ ١٦.

به ، لا تصديقاً له ، و لا طاعة وإنْ عرفوا الحق ، كما قال تعالى ﴿ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة : ١٤٦] كتموه.(١٦)

يرى الباحث أن هذه الحالة ليست عند اليهود وحدهم بل قد يتصف بها بعض عصاة المسلمين ، فإن بعض مفكري التيار الحداثي يرفضون الانصياع والاستجابة لتعاليم القرآن الكريم ، خاصة في جانب الأحكام التشريعية ، ويرون أنها منسوخة بحجة أن المخاطبين بها هم من كان في زمن التنزيل ، وأن البشرية قد تطورت فعليها أن تعتمد على العقل في التشريع بعيداً عن الوحي.

رابعا : الجامعون بين سماع الفقه وسماع الاستجابة

يرى ابن تيمية أن هذا الصنف من النَّاس حصل له السَّمَاع الصوتي المجرَّد ، وسماع الفقه ، بل وسماع الاستجابة ، وهذا السَّمَاع الجامع ، هو الذي عناه الله في قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ** ﴾ [المائدة : ٨٣ ، وقال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾ [الأنفال : ٢] وقال تعالى : ﴿ **وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ** ﴾ [التوبة : ١٢٤] ، وقال تعالى : ، ﴿ **وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا** ﴾ [الإسراء : ٨٢].(١٧)

يفهم من كلام الشيخ ابن تيمية أن السماع الجامع الذي يقوم على الاستجابة لنصوص الوحي في كل مجالات الحياة هو الذي ينفع البشرية ويؤسس لحضارة إنسانية

(١٦) ينظر ، المصدر نفسه ، ١٦ / ١١.

(١٧) ينظر ، ابن تيمية ، المصدر نفسه ١٦ / ١٤.

تقوم على الوحي الذي تستمد منه الأحكام والحكم والمواعظ والعبر والهدايات في كل مجالات الحياة.

إن معرفة فضل القرآن الكريم والتأدب في سماعه وتحقيق سماع الاستجابة هو الذي يؤثر على القلب والنفس والعقل ، وعلى هذه الثلاثة تؤسس وتقوم الحضارة.

فالقرآن شفاء لأمراض القلب ، المتمثلة في مرض الشبهات والشهوات ، فمرض الشبهات مفسد للعلم والتصور والإدراك ، فبالقرآن يزول هذا الداء فيرى القلب الأشياء على حقيقتها. وفي القرآن مادة التاريخ التي تحتوي على حكم ومواعظ وعبر من الحضارات السابقة ، تحمل القلب على الأخذ بالنافع منها وترك الضار.(١٨)

ومادة التاريخ هذه هي التي أشار إليها " **الدوس هكسلي** [Aldous Huxley] ".الذي يرى أنَّ الاعتماد في مبادئ السياسة العليا يقوم على السيكولوجيا ، وأنَّ هذه الإدراكات السيكولوجية يتم مراقبتها عن طريق دراسة التاريخ.(١٩)

وأمَّا داء الشهوة المتمثل في فساد الإرادة ، فيتم علاجه كذلك عن طريق القرآن ، الذي فيه الإيمان ، وهو الدواء الناجع لداء الشهوة ، فبخلاص القلب منه ، ينمو ويزكو تماماً مثل الجسد ، حتى يصل إلى مراقي الكمال والصلاح.(٢٠)

ويشرح أبو طالب المكي الأسباب التي حالت بين المسلمين والاستفادة من القرآن ، كوسيلة فاعلة لعلاج مرض الشبهة والشهوة ، ويحصرها في البدعة ، والإصرار على

(١٨) ينظر ، ابن تيمية ، أمراض القلب وشفاؤها ، المطبعة السلفية – القاهرة ، ط٢ ، ١٣٩٩هـ ، ١ / ٥.

(١٩) ينظر ، فضيلة الشيخ محمد الحمراني ، مرجع سابق.[مقال].

(٢٠) ينظر ، ابن تيمية ، أمراض القلوب ، مصدر سابق ، ١ / ٥.

الذنب ، والكبر ، وحب الدنيا ، وعدم الإيمان ، وضعف اليقين ، وسطحية الفهم للقرآن المتمثلة في تتبع حروف القرآن دون الغوص في معانيه.[٢١]

إنَّ أبا طالب المكي من علماء القرن الرابع الهجري ، وقد تعددت في عصره علوم القرآن ، وبدأت تظهر التخصصية في تناول القرآن من مدارس الكلام ، وهم أهل البدع ، أو ساسة يتأولون آيات الله على غير وجهها ، أو قُراء اهتموا بالشكل والنقط ، أو علماء نحو وصرف ، أو علماء بيان ، فان هذه التخصصية ، إذا لم يلتفت المرء إلى الغاية من القرآن ، غرق في بحرها ، وهي من أخطر الحجب التي تحول بين المؤمن وفهم وتدبر القرآن.

وهذه العلوم التي أشار إليها أبو طالب المكي كواحدة من أسباب الحيلولة دون فهم القرآن ، تبدو في غاية الرحمة قياساً على اهتمامات الشباب في هذا العصر ، ذلك الاهتمام المنصب على الأدب الرخيص ، ولذلك كانت نسبة الاستفادة من القرآن من إيمان وعلم ومعرفة تشفي أمراض الشهوات والشبهات أقل ، إنْ لم تكن معدومة بالكلية.

فتأمل القرآن- كما يرى ابن القيم- يقوم على تحديق نظر القلب ، لا العين الجارحة ، مع جمع الفكر ؛ بمعنى آخر تشترك كل من قوة البصيرة التي محلها القلب ، وقوة الفكر التي محلها العقل في تدبر واستنباط معاني وحكم القرآن ؛ ليحصل بذلك الإيمان والمعرفة والعلم وحقائق اليقين والخشية ، وأنَّ مجرد التلاوة بلا فهم ولا تدبر لا يشفي القلب والنفس والروح والعقل ، ولا تحصل تزكية ولا إصلاح. ومن الوسائل التي تعين على التدبر ، ترديد الآية الواحدة عدة مرات ، فعن أبي ذر قال : قام رسول الله ﷺ بنا ليلة فقام بآية يرددها وهي ﴿ **إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ [المائدة ١١٨] ؛ ولَعَلَّ التابعين أخذوا بهذا المنهج ، فعن أبي سليمان الداراني أنَّه قال : إنِّي

---

(٢١) ينظر ، أبو طالب المكي ، قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد ، تحقيق: : د. عاصم إبراهيم الكيالي ، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان ، ط٢ ، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م ، ١/٦٩.

لأتلو الآية فأقيم فيها أربع ليال ، أو خمس ليال ، ولولا أني أقطع الفكر فيها ما جاوزتها إلى غيرها.[٢٢]

ويشير ابن القيم إلى جملة من العلوم التي اشتغل بها النَّاس في عهده ، وأهملوا القرآن ، منها كتب العقائد التي ألفها أهل كل طائفة من المبتدعة ، وعلوم الفلسفة ، وكل تلك قاطعة عن الله ، ولا يحصل بها إيمان ولا يقين ، وعلوم الطب والزراعة والفلك ، التي هي صحيحة ، ولكِنْ لا منفعة فيها للقلب.[٢٣]

ويقصد ابن القيم بالعلوم الصحيحة التي لا نفع للقلب فيها ، مثل علوم الزراعة والطب والصيدلة والهندسة الخ... فإنها وسائل لإعمار الأرض وإسعاد البشرية ، ولكِنْ إذا قطعت صاحبها عن تدبر القران وفهمه ، فإنَّ مرض الشبهات والشهوات لا محالة يصيب القلب ، ولكِنْ التعمق في هذه العلوم مع نية ربطها بالله تعالى تورث حقائق اليقين ، والإيمان والخشية.

المطلب الثالث : ما يصد عن القرآن :

تباينت مناهج المسلمين في اعتبار السَّمَاع لغير القرآن من شعر ونحوه ، هل هو وسيلة مفيدة في التزكية والإصلاح ، أم أنَّ كل سماع لغير القرآن ، فهو ضلالة وغواية وانحراف في التفكير وبدعة ، تؤدي إلى الضلال والشِّرك الجلي والخفي ؟. وانقسموا إلى طوائف هي :

الطائفة الأولى : المجيزون للسماع بشروط وضوابط :

يرى البيهقي أن هذا التيار يتمثل في بعض أهل التصوف الذين اشتهروا بالسماع المحدث ، ويرون أنَّه أحد أهم وسائل تزكية النَّفس وإصلاحها. والدليل على ذلك عند

---

(٢٢) ينظر ، ابن القيم ، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، تحقيق محمد حامد الفقي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط٢ ، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م. ، ١/ ٤٥١.

(٢٣) ينظر ، ابن القيم ، إغاثة اللهفان ، إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان ، تحقيق: محمد عزير شمس ، دار عالم الفوائد - مكة المكرمة ، ط١ ، ١٤٣٢ هـ ص ٤٤.

هذا التيار ، الحداء الذي له فائدة معقولة تتمثل في تنشيط الإبل على السير ، فزال عن الحداء صفة الباطل ، وصح وصفه بالحق ، وإذا كان ذلك كذلك ، فإنَّ الغناء الذي فائدته استصلاح النَّفس والفكر أولى ألا يوصف بالباطل ، بل بالحق فلا يكره.[٢٤]

ويرى سهل بن محمد أنَّ السَّمَاع مستحب لأهل الحقائق ، ومباح لأهل الورع ، ويكره للفساق ومن يسمعه بطراً ، ومن الأدلة التي يذكرها أهل السلوك للدلالة على أهمية السَّمَاع في التزكية ، البراء بن مالك ، الصحابي الذي كان حسن الصوت ، وطيب القلب ، ويميل إلى السَّمَاع ويستلذ الترنم ، واستشهد يوم تستر ، وأنَّه كان يرجز برسول الله ﷺ فبينا هو يرجز برسول الله ﷺ في بعض أسفاره إذ قارب النِّساء فقال رسول الله ﷺ : **" إياك والقوارير إياك والقوارير "**.[٢٥]

ويرى القشيري أنَّ الدليل على إباحة السَّمَاع لكل شيء ، ثُمَّ الانتقاء من هذا المسموع أحسنه ، هو قوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ** ﴾ [الزُّمَر : ١٨] ، فاللام في كلمة **" القول "** تفيد التعميم والاستغراق لكل قول ، فالله مدحهم بأنَّهم يتبعون الأحسن بعد السَّمَاع ، ومن أدلة هذا التيار على إباحة السَّمَاع قوله تعالى : ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ** ﴾ [الروم : ١٥] ، فالحبور هو شعور يحدث لأهل الجنة بسبب السَّمَاع حيث تتجاوب معهم كل أشجار الجنة.[٢٦]

---

(٢٤) ينظر ، البيهقي ، شعب الإيمان ، تحقيق السعيد بسيوني زغلول ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٠هـ ، ٤/ ٢٨٤.

(٢٥) أبو عبد الله النيسابوري ، المستدرك على الصحيحين ، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١١هـ-١٩٩٠م. ٣/ ٣٣٠ ، وينظر ، أبو نعيم ، حلية الأولياء ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط٤ ، ١٤٠٥هـ ، ٣/ ٦٩.

(٢٦) ينظر ، ابن تيمية ، الاستقامة ، مصدر سابق ، ١/ ٢١٦.و ينظر ، أبو نعيم ، حلية الأولياء ، مصدر سابق ، ٣/ ٦٩.

فالشعر ، عند هذا التيار ، لا يجوز سماعه ، ويجب حفظ اللسان عنه ، إذا كان تحتوي معانيه على الهجاء والفحش والكذب ، ولكِنْ الشِّعْر الذي يخلو من كل ما سبق ، فهو مثل الكلام ، ومع ذلك لا يستحب الإكثار منه ، كي لا يصد ويشغل عن قراءة القرآن وذِكْر الله.[٢٧] فما جاء عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ : قال : **" لأنَّ يمتلئ جوف الرجل قيحاً يريه خير من أن يمتلئ شعراً "**[٢٨] ، فالامتلاء كناية عن أنَّ الشِّعْر استولى على كل وقته ، وشغله عن قراءة القرآن والذكْر ، والعلوم الشَّرعية ، والقيح الذي يريه الداء الذي يأكل جوفه ويفسده.[٢٩]

ويرى ابن تيمية أن من الصوفية من لا يحصر السَّمَاع في حكم المستحب ، بل هو عنده من الواجبات التي لا يتم الواجب إلا بها ، فإذا كان هذا السَّمَاع يؤدي إلى الإيمان ، فإنَّه في هذه الحالة يقدَّم على القرآن بل ويكفرون ويفسقون من ينكر السَّمَاع.[٣٠]

فتيار الصوفية ، وفي مقدمتهم القشيري ، لا يمانع من سماع الشِّعْر الممزوج بالألحان الطيبة والنغم المستلذة ، طالما أنَّه لا يحمل معاني وأفكاراً تتناقض مع الاعتقاد ، ولا يُؤدَى في مجلس محظور ، ولا يُؤدِّي هذا السَّمَاع إلى اللهو والهوى ، بل هذا النَّوع من السَّمَاع -على حد زعمهم- يزيد رغبة السالك في الطاعات ، ويذكره بالدرجات التي أعدها الله لعباده المتقين ، كما أنَّه يقي سامعه من الزلات ، كما أنَّه يساعد على إدخال صفاء الواردات إلى القلب ، فسماع من هذا النَّوع مستحب ومختار من ناحية الدِّين والشَّرع. وما يستدل به -تيار

---

(٢٧) ينظر ، البيهقي ، مصدر سابق ، ٤ / ٢٧٦.

(٢٨) مسلم ، صحيح مسلم ، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ، الدار إحياء التراث العربي – بيروت ، كتاب الشعر ، ٤ / ١٧٦٩ رقم الحديث : ٢٢٥٧.

(٢٩) ينظر ، السيوطي ، الديباج على مسلم ، دار ابن عفان ، الخبر ، السعودية ، ط١ ، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م. ٥ / ٢٧٤.

(٣٠) ينظر ، ابن تيمية ، الاستقامة ، مصدر سابق ، ١ / ٢٣٣-٢٣٥.

الصوفية- ، بجانب آية السَّمَاع وآية الحبور وهما دليلان مجملان ، أنَّ بعض أهل المدينة من العلماء كان يسمع الغناء.

وهذا النوع من السماع تراه الأمم الأخرى من أرقى أنواع الفنون التي تدل على الرقي والحضارة ، وكان من أبرز سمات عصر النهضة ، والحضارة الغربية اليوم تعد هذه الطائفة من أقرب طوائف المسلمين للفكر الغربي مقارنة مع الجماعات المتطرفة.

الطائفة الثانية : المانعون للسماع مطلقاً :

من الممثلين لهذا التيار ابن تيمية الذي تولى الرد على تيار المجيزين ، وأورد حججهم ورد عليهم وخلص من الرد عليهم إلى جملة من الأحكام منها :

أولاً : تحريم السماع :

إذ يرى ابن تيمية أن قوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ** ﴾ [الزُّمَر : ١٨] لا يقف دليلاً على جواز استماع كل قول ، لأنَّ من الأقوال ما يكون سماعه حراماً أو مكروهاً كما قال النبي ﷺ : " **من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون صب في أذنيه الآنك يوم القيامة** "[٣١] و قال تعالى : ﴿ **وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾ [الأنعام : ٦٨] ، ففي الآية أمر بالإعراض عن كلام الخائضين ، ونهي عن القعود معهم ، فكيف يكون استماع كل قول محمود ؟.[٣٢]

---

(٣١) الإمام أحمد ، المسند ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد ، وآخرون ، مؤسسة الرسالة ، ط١ ، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م ، ١/٢١٦.

(٣٢) ينظر: ابن تيمية ، الاستقامة ، مصدر سابق ، ١/٢١٦-وما بعدها ، وينظر ، ابن تيمية ، أمراض القلوب ، مصدر سابق ، ١/٧٣.

ثانياً : السماع يورث الضلال :

ويرى ابن تيمية أن قوله تعالى : ﴿ **وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا** ﴾[النساء : ١٤٠] ، دليل على أن مستمع هذا الحديث الباطل مثل قائله ، وفي ذلك دليل على عدم صحة سماع كل قول ، بل إنَّ الله مدح المؤمنين بسبب إعراضهم عن اللغو فقال ﴿ **وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا** ﴾ [الفرقان : ٧٢] ، فالسماع لكل قول والنظر إلى كل صورة بابان من أبواب الشيطان ، أضل بهما كثيراً من النَّاس ، خاصة عندما جعلوا هذا النَّوع من السَّمَاع والنظر عبادة وقربة وطاعة لله تعالى ، ويرى ابن تيمية أنه يجب عدم الاقتداء بهؤلاء العلماء الصوفية ، لأنَّ من هو أفضل منهم من كبار السلف ، أخطأ عندما اقتتلوا في الفتنة بحجة أنَّ القتال واجب ومستحب ، ومنهم من حلل ربا الفضل والمتعة والأشربة المسكرة والحشوش ، وأجمع العلماء على عدم الاقتداء بهم في الزلة والهفوة ، ومن ثم عدم الاقتداء بكبار الصوفية في السَّمَاع أولى.

بل ويذهب ابن تيمية إلى أبعد من ذلك عندما يشبه المتوسعين في إباحة السماع بعباد النصارى ويجعل الضلال صفة مشتركة بين الفريقين. ولكنَّه ينصف طائفة منهم ، أمثال الجنيد بن محمد ، الذين يرون أنَّ تكلف هذا النَّوع من السَّمَاع المحدث يؤدي إلى الفتنة ، ولا يجوز الاجتماع له شرعاً ، ولا الاعتقاد بأنَّه قربة وعبادة ودين ، يساهم في تزكية وصلاح القلوب. فالاستماع الحقيقي ، عند هذه الطائفة هو الاستماع لكلام الله ، وتدبره والإيمان والعمل به ، ومن فعل ذلك فهم أهل السَّمَاع المحمود ، والوجد القرآني ، الذين يستحقون الثناء من الله.[٣٣]

---

(٣٣) ينظر ، ابن تيمية ، الاستقامة ، مصدر سابق ، ١ / ٢١٦ -وما بعدها ، وينظر ، ابن تيمية ، أمراض القلوب ، مصدر سابق ، ١ / ٧٣.

ويذكر ابن تيمية طائفة العلماء ، التي تطرفت في الجانب الآخر ، من تياره نفسه ، فكفرت كل من يعتقد بأنَّ السَّمَاع مستحب أو واجب ، ويصف ابن تيمية هذا التكفير لأهل السَّمَاع بأنَّه غلو نتيجته الحتمية الفرقة والعداوة والبغضاء ، ويعلل ذلك بأنَّ كلا الفريقين ترك السَّمَاع الشَّرعي الذي يحبه الله ورسوله والمؤمنون.(٣٤)

يعد رفض ابن تيمية تكفير من يجعل السماع واجباً فهماً وسطاً ومتقدماً ؛ لأن السماع لا يقع في دائرة الاعتقاد بل يتعلق بالسلوك ، ومع هذا تبنت جماعات متطرفة- خاصة في هذا العصر- وحرمت السماع جملة وتفصيلاً وكفرت وضللت وفسقت من يرى أنه وسيلة للتزكية والإصلاح ، ولم تنظر إلى هذا التفصيل الذي أشار إليه ابن تيمية ، وكانت النتيجة إظهار الإسلام للشعوب الأخرى بأنه ضد كل فن ، ولا سماع إلا للقرآن الكريم وحده ، وبهذا تحرم البشرية من النظر في كتاب الله وتحكيمه في شؤون الحياة ، ومن ثم بناء الحضارة الإنسانية.

ثالثاً : السماع من صنع الزنادقة :

ويرى ابن تيمية أن ما زعمه بعض الصوفية أنَّ أهل المدينة كانوا يسمعون الغناء ، استشهاد تاريخي باطل ، تم توظيفه في غير محله ، فإنَّ أهل المدينة لم يقولوا أنَّه واجب أو مستحب ، لكنهم يفعلونه مع الاعتقاد بكراهته ، وأنَّ تركه أفضل ، وأنَّه من الذنوب ، وعلى أفضل الفروض هو من المباحات ، تماماً مثل التوسع في الطعام والشَّراب والملابس والمساكن ، ولكِنْ لا يرون فيه قربة وعبادة لله. ويزعم ابن تيمية أنَّ السلف وأئمتهم يرون أنَّ السَّمَاع مبتدع من صنع زنادقة اليهود والنصارى والصابئة ، والغاية منه صد قلوب الأمَّة عن سماع القرآن ، ويذكر الشافعي أنَّه لَحَظَ ، عند زيارته لبغداد ، انتشار ظاهرة التَغْبِير ، التي تعني الضرب بالقضيب وهو آلة موسيقية مصحوبة بغناء ، وقد أدرك الشافعي _كما يرى ابن تيمية_ لكمال علمه وإيمانه أنَّ هذا التَغْبِير يصد القلوب عن ذِكْر الله

(٣٤) ينظر ، ابن تيمية ، الاستقامة ، مصدر سابق ، ١/ ٢٣٣- ٢٣٥.

فكل ما قاله الصوفية من ثمار للسماع كلام باطل ، وقد ضَلَّ وزلَّ كثير من العلماء بسبب هذا السَّمَاع.[٣٥]

ولا ينكر ابن تيمية أنَّ الشِّعْر إذا كان من الكلام المباح أو المستحب جاز سماعه ، ولكنَّه يرى أنَّ الشِّعْر الموجود في السَّمَاع المحدث المختلط بالمكاء والتصدية ليس من نوع الكلام المباح أو المستحب ، ومن ثم لا يجوز للقشيري ، الذي تأثر بأبي عبد الرحمن السلمي في أدلته التي أوردها على جواز السَّمَاع ، أن يستشهد بما سمعه النبي ﷺ من الشِّعْر.[٣٦]

ويقسم ابن القيم الذي يؤيد شيخه ابن تيمية السماع ، فالسماع نوعان : الأول : سماع اللعب والطرب ، وهذا النَّوع يتفاوت-حسب الشِّعْر-ما بين مكروه ومحرم وباطل ومرخص في بعض أنواعه ، والنوع الثاني : السَّمَاع المحدث لأهل الدِّين والقرب ، فهو بدعة وضلالة لمخالفته الكتاب والسنة وإجماع السلف.[٣٧]

وبجانب الغناء الذي هو من مزامير الشيطان ، يكون الشيطان نفسه ، مصدر الوساوس والشهوات والإرادات الفاسدة ، فالاستعاذة منه ، عند قراءة القرآن ، يذهب كل ذلك ويجعل القلب قابلاً لِمَا ينبت فيه من العلم والخير ، كما تساهم هذه الاستعاذة في حفظ وثبات وتمكن العلم والخير.[٣٨]

فالقرآن ليس شفاء لكل الطبائع والأنفس ، فالطبائع الرديئة بسبب الضلال والكفر ، لا يزيدها إلا خسارة ، فكون كثير من النَّاس لم يحدث له شفاء بالقرآن ، لا ينفي كون القرآن فيه شفاء لأمراض البدن والقلب والروح ، فتلك حقيقة ثابتة بقوله : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾

---

(٣٥) ينظر ، ابن تيمية ، الاستقامة ، المصدر نفسه ، ١ /٢٣٨.

(٣٦) ينظر ، ابن تيمية ، الاستقامة ، المصدر نفسه ، ١ /٢٦٧-٢٧١.

(٣٧) ينظر ، ابن القيم ، إغاثة اللهفان ، مصدر سابق ، ١ /٩٢.

(٣٨) ينظر ، ابن القيم ، إغاثة اللهفان ، المصدر نفسه ١ /٩٢.

[يونس : ٥٧] ، فالقرآن شفاء لأخطر أمراض القلب من غي وضلال وشبهات وشهوات.(٣٩)

وثمة فرق بين السَّمَاع والاستماع ، فمن سمع الملاهي ، ومن ضمنها الغناء ، دون قصد ، فإنَّ هذا السَّمَاع لا يترتب عليه نهي ولا ذمٌّ ؛ والعلة في ذلك انعدام القصد ، فمن سمع بيتاً من الشِّعْر أو سمع أغنية من غير قصد ، فأخذ من ذلك المعنى إشارة ذاقها فحركت الوجد في قلبه لمعانٍ عظيمة ، مثل حب الله ورسوله ، أو حب عمل يحبه الله ورسوله ، فإنَّ هذا يحمد لأنَّه من باب القياس والاعتبار والتمثيل. ولكِنْ أقصر الطرق لتحقيق تلك المعاني ، هو السَّمَاع القرآني النبوي الشَّرعي الإيماني. وهذا السَّمَاع الإيماني القرآني النبوي الديني الشَّرعي ، هو الذي كان عليه سلف الأمَّة وأكابر مشايخها وأئمتها كالصَّحابة والتابعين ، ومن بعدهم من المشايخ كإبراهيم بن أدهم والفضيل بن عياض وأبي سليمان الدراراني ومعروف الكرخي ويوسف بن أسباط وحذيفة المرعشي ، وأمثال هؤلاء وكان عمر بن الخطاب يقول لأبي موسى الأشعري : يا أبا موسى ذكرنا ربنا ، فيقرأ وهم يسمعون ويبكون ، وكان أصحاب محمد إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم أنْ يقرأ القرآن والباقي يستمعون. فثمرة هذا النَّوع من السَّمَاع ، المواجيد العظيمة ، والأذواق الكريمة ، وزيادة المعارف والإيمان ، والأحوال الجسيمة ، ولا تتواجد كل هذه الفوائد في كتاب غير القرآن ، وتزيد كل تلك ، كلما زاد وطال التدبر والتفهم للقرآن.(٤٠)

ويرى البيهقي أن الإسراف في السماع يفوت على المرء تلقي العلم والعمل ، فالجنيد كان يقدم العلم على السماع ، وبشر الحافي لا يرى شيئاً أفضل من العلم ، ويرى سري السقطي ، أنَّ من بدأ العبادة ثُمَّ ذهب يلتمس العلم ، فهو أقرب إلى الهلاك خلافاً للذي

(٣٩) ينظر ، ابن القيم ، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ١/ ٢٥.

(٤٠) ينظر ، ابن تيمية ، التحفة العراقية في الأعمال القلبية ، المطبعة السلفية – القاهرة ، ط٢ ، ١٣٩٩ ، ١/ ٧٤، ٧٥.

يبدأ بالعلم قبل العبادة ، فكل من قسم وقته بين العلم والسماع فهو مقصر فكثير من الناس يصرف وقته في الملاهي واتباع الشهوات.[٤١]

واضح مما سبق أن المانعين للسماع يرون أنه بدعة مضلة من صنع الزنادقة من كل الملل ، والغاية منها الصد عن كتاب الله ، بل ضل بها بعض كبار العلماء ، ويحرمونه ولو كان مؤسساً على شعر حسن طالما اختلط بالموسيقة ، ولا وسيلة للتزكية والإصلاح ومن ثم بناء الحضارة إلا بالسماع للقرآن وحده.

ويرى الباحث أن هذا التباين داخل الأمة الإسلامية كان ولا يزال إلى يوم القيامة ، وفي ظل عصر يعشق الفن بكل أنواعه ، فإن كثيراً من الأجيال في هذا العصر ترى أن فتاوى رجال الدين في الإسلام تشبه مواقف الكنيسة في عصر النهضة ؛ وعليه من الحكمة لتحقيق المقاصد العليا للدين عدم وضع هذه المسألة في دائرة الاعتقاد ، والقول- كما برر ابن تيمية للمجيزين لها- بأنها من المباح مثلها مثل التوسع في المأكل والمشرب والملبس.

(٤١) ينظر ، البيهقي ، السنن ، مصدر سابق ، ٢/ ٣٠٣.

المبحث الثاني

الذكْر وأثره في الإصلاح والتزكية

يأتي الذكْر ، بجانب القرآن ، والجمع بين العلم والعمل ، كأحد أهم عوامل التزكية والإصلاح ، وإنتاج جيل يسهم في بناء الحضارة الإنسانية ، والذكر بكل أنواعه ودرجاته يدخل في كل العبادات ، ويمكن بيان ذلك من خلال المطالب الآتية :

المطلب الأول :

تعريف الذكْر وأنواعه :

يرى القرطبي أن أصل الذكْر التنبه بالقلب للمذكور والتيقظ له ، وسمى الذكْر باللسان ذكراً ، لأنَّه دلالة على الذكْر القلبي ؛ غير أنَّه لَمَّا كثر إطلاق الذكْر على القول اللساني صار هو السابق للفهم.[٤٢]

يفهم من كلام القرطبي أن الذكر يكون بالقلب واللسان معاً ؛ ذلك لأن القلب هو محل التفكر والتدبر.

ويذهب الإمام العيني إلى أن أنواع الذكر ثلاثة هي :

النوع الأول : ذكر اللسان وتمثله الألفاظ الدالة على التسبيح والتحميد والتمجيد.

النوع الثاني : ذكر القلب وتمثله عمليات التفكر وإعمال العقل في الأدلة التي تتعلق بالذات والصفات ، وتلك التي تتعلق بالأمر والنهي.

النوع الثالث : استغراق الجوارح في الطاعات.[٤٣]

---

(٤٢) ينظر ، القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش ، دار الكتب المصرية – القاهرة ، ط٢ ، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م ، ٢/ ١٧١.

(٤٣) ينظر ، العيني ، عمدة القاري شرح صحيح البخاري ، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ٢٣/ ٢٧.

ويرى الباحث أن النوع الأول تدخل فيه كل أنواع العلوم الطبيعية من فلك وطب وهندسة وغيرها ، طالما أن الحقائق التي يتوصل إليها العلماء تفيد الحضارة الإنسانية في جوانبها المادية ، وتنتهي بعلماء العلوم الطبيعية إلى الوقوف على آثار وتجليات معاني أسماء الله وصفاته في هذا الوجود ؛ ذلك لأن كل علم يورث الخشية وحقائق اليقين فهو من علم الآخرة.

وأن النوع الثاني من الذكر يركز على العقل القائد ويستخدمه في التفكر والتدبر في الوحي المُسدِّد المتعلق بنصوص العقيدة والأحكام ، ويتولد من ذلك ما يوضح التصور الفكري والسلوكي للإنسان ، ولا يدع العقل يشرع لنفسه.

وأن النوع الثالث يتوج النوعين الآخرين بالتطبيق العملي والربط بين التصور والسلوك.

ويلاحظ أن هذا التقسيم للذكر يجعل كل حركة الحياة لله ، وهو فهم قل ما يدركه الكثير من الناس ؛ إذ يرون الذكر هو همهمات باللسان ، وفرار إلى الكهوف والمغارات ، وما دروا أن كل أوجه الحياة تعد ذكراً لله. فلو فهمت البشرية الذكر بهذا التقسيم لبنيت الحضارة الإنسانية على الوحي وحققت السعادة في الدنيا والآخرة.

ويرى البيهقي أن الذي ينشغل بعبادة الله في ركوعه وسجوده ، ثُمَّ إذا عجز ذكر الله - مستروحاً - بلسانه ثناءً وحمداً ، وإنْ عجز انتقل إلى ذكر القلب والتفكر - من كان هذا حاله - دلَّ على محبته لله ومحبة الله له.(٤٤)

ويذهب أبو نعيم الأصفهاني إلى أن التابعين والسالكين يرون أنَّ غايتهم الكبرى التي يسألون الله أن يهبها لهم ، هي أن تسكن عظمته قلوبهم ، وأنَّ من أخلاق أهل المحبة ، كثرة ذِكْر الله في ساعات الليل والنهار ، فإنَّ ذكر القلب عندهم أبلغ وأنفع.(٤٥)

(٤٤) ينظر ، البيهقي ، شعب الإيمان ، مصدر سابق ، ١ / ٣٦٩.

(٤٥) ينظر ، أبو نعيم ، حلية الأَوْلياء ، مصدر سابق ، ١٠ / ١٨٦.

يفهم من هذا الترتيب وضوح الرؤية لمعنى الذكر عند علماء المسلمين فهو ذكر متنوع وشامل ومتعدد يستوعب كل أوقات المرء للوصول إلى مقام الحب الذي هو غاية ومنتهى مقامات السير إلى الله.

وأن الناس لو وصلوا إلى هذا المقام حصلت لهم السكينة والطمأنينة ولا تتطرق لهم أمراض العصر من سأم ويأس وقلق واكتئاب ، وهي سمة وعنوان حضارة العصر.

المطلب الثاني : درجات الذكْر :

رتب علماء المسلمين درجات الذكر بناء على أهميتها وعظمتها ويمكن حصرها في الآتي :

(أ) **الذكْر الخفي :** يرى الجنيد بن محمد ، أنَّ الذكْر الخفي محله القلب ، وتنطوي عليه الضمائر ، ولا يُحَرِّك فيه الذاكر لساناً ولا جارحة ، ويتمثل في الهيبة لله تعالى والتعظيم والإجلال له ، واعتقاد الخوف منه ، وقد استأثر الله بعلمه ، ولا تعلمه حتى الحفظة ، وإنَّ مثل هذه الأعمال السرية ، تزيد سبعين ضعفاً على عمل العلانية. ويستدل الشيخ الجنيد على هذا النَّوع من أنواع الذكْر بقوله تعالى : ﴿ **وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ** ﴾ [القصص : ٦٩] ، وتأتي أفضلية هذه الدرجة من الذكْر ، لأنَّها خاصة به.

والمراد بهذا الذكْر الخفي ، التدبر والتفكر في مصنوعات الله ونعمه ، ومن هنا فإنَّ الباحثين في كل مجالات الحياة يكونون في ذكر خفي ، طالما ربطوا ذلك بالنيات ، وقادهم إلى العلم والمعرفة والخشية وحقائق اليقين ، وإنَّ الجماعات التي هجرت المجتمع ، وقبعت في الكهوف والمغارات ؛ بحجة التفرغ للذكر ، كان يمكنها أن تنفع الحضارة الإنسانية لو عكفت على كشف أسرار الكون ، وتوجيه نواميسه ؛ لمنفعة البشرية ، لأنَّ هذا يفوق الذكْر الذي تعلمه الحفظة بسبعين ضعف.

(ب) **الذكْر الذي تعلمه الملائكة :** وهذا النَّوع تعلمه الحفظة ، وقد وكلها الله بتدوينه ، ودليله قوله تعالى : ﴿ **كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ** ﴾ [الانفطار : ١١-١٢] ، فكل ما لفظ به اللسان وما تَمَثَّل في السعي والأفعال ، أو

أضمرته القلوب ولم يظهر على الجوارح ، أو ما تعتقده القلوب ، فإنَّ كل ذلك يعلمه الله ؛ ومن هنا كان عمل السر أفضل من عمل العلانية ، لأنَّ صاحبه جعله لله ، ولم يرد أحداً يطلع عليه غير الله ، وهذا هو الإخلاص وصدق القصد والإيثار لله.(٤٦)

(ج) **ذكر الجوارح :** ويتجلَّى ذكر الجوارح في السلوك الذي يضبط حركة المرء ، بناءً على قيم الوحي ، ذلك السلوك الذي يخلو عن كل ما يناقض قيم الدِّين ، فكل من طاعة الله ، والثناء عليه ، والإجابة والإخلاص ، سواء في السر أو العلن أو في الخلوات ، ومجاهدة النَّفس في الله والصدقة والرغبة والرهبة والرجاء والخوف ، كل ذلك يمثل ذكر العبد لربه ؛ ويتمثل ذِكْر الله ، لمن ذكره ، في الثواب والمدح والرضى والإكرام والرحمة والنعم من الله لعباده الذاكرين.(٤٧)

ومن هذه الجوارح اللسان ، و يَتَمَثَّل الذكْر باللسان في حمد الله وتسبيحه وتمجيده ، وقراءة القرآن ، وقد يكون خفياً لا يسمعه إلا صاحبه ، ويدخل في دائرة الذكْر الخفي ، والدليل على كل ذلك قوله تعالى : ﴿ **قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ** ﴾ [الأعراف : ٢٠٥].(٤٨)

يرى الباحث أن هذه الدرجة من الذكر هي الترجمة العملية لأحكام الله التشريعية والعقدية وما يتعلق بالقيم والأخلاق ، وأن أي حضارة لا تترجم أفكارها وتصوراتها إلى سلوك عملي فهي حضارة مغرقة في الخيال ، وأن أي حضارة تبعد العقيدة والأخلاق من الحياة فهي حضارة جوفاء خالية من الروح.

(د) **ذكر القلب :** وهو على ثلاثة أنواع :

---

(٤٦) ينظر ، أبو نعيم ، حلية الأولياء ، مصدر سابق ، ١٠ ، ٢٦٤.

(٤٧) ينظر ، الفخر الرازي ، مفاتيح الغيب = التفسير الكبير ، دار إحياء التراث العربي - بيروت

(٤٨) ينظر ، البيهقي ، شعب الإيمان ، مصدر سابق ، ١ /٤٠٦.

الأوَّل : إمعان العقل تأملاً وتدبراً ، في الدلائل الدالة على ذاته وصفاته من مخلوقاته ، وإبطال كل شبهة قادحة في تلك الدلائل.

الثاني : المعرفة العميقة للنصوص الدينية ، التي تحمل الأحكام التكليفية ، من أوامر ونواهٍ ووعد ووعيد ، فإنَّ هذا النَّوع ، من التدبر والتفكر والمعرفة ، يدخل في دائرة ذكر القلب.

الثالث : التفكر والتدبر في أسرار المخلوقات ؛ ليتوصل القلب ، من خلال ذلك ، إلى معرفة عالم الجلال.[٤٩]

ويرى الباحث أن النَّوع الثاني الذي ذكره الرازي-معرفة النصوص الدينية- تمثله مدارس الفقه الإسلامي وأئمته ، وفي مقدمتهم الإمام أبو حنيفة والإمام مالك والإمام الشافعي والإمام أحمد وغيرهم ، وكثير من النَّاس يجهل حقيقة أنَّ الاشتغال بالفقه نوع من الذكْر ، ويمكن أن يدخل فيه تطوير الدساتير والقوانين واللوائح والأنظمة التي تنظم حركة الحياة في كل جوانبها ، خاصة إذا كانت مستمدة من الوحي.

ليت الفخر الرازي جعل النَّوع الأوَّل والثالث نوعاً واحداً ، فإنَّ النَّوع الأوَّل تَمَثَّلَ في بحوث عقدية ، أسس لها علماء الكلام مناهج شغلت عقول النَّاس بمباحث فوق طاقة العقل ، فهي أقرب إلى الفلسفة منها إلى الواقع ، فلو قضى علماء الكلام أعمارهم ، وبحوثهم في التفكر والتدبر في أسرار المخلوقات لكنا سبقنا الغرب بمراحل في مجال التطور المادي وأصَّلْنَا له ، لأنَّ مثل هذا التعمق يقود إلى العلم والإيمان والخشية ، وهو نوع من أنواع ذكر القلب ، وفي ذات الوقت يحقق الرفاه الاقتصادي للإنسانية.

---

[٤٩] ينظر ، الفخر الرازي ، مفاتيح الغيب ، مصدر سابق ، ٤ / ١٣٠.

المطلب الثالث :

فوائد الذكْر :

استطاع علماء المسلمين أن يستنبطوا من نصوص الكتاب والسنة جملة من فوائد الذكر التي تعد من أهم عوامل التزكية والإصلاح التي تساهم في تكوين الشخصية الفاعلة المؤثرة في بناء الحضارة الإنسانية. ومن فوائد الذكر :

أولاً : الطمأنينة والنصر والتمكين :

يرى الشنقيطي أن في قوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾ [الرعد : ٢٨] دليل على أن الذكر يحقق الطمأنينة(٥٠) ، ويرجع ابن كثير ، سبب قدرة الصَّحابة على فتح قلوب العالم وأقاليمه ، في مدة وجيزة من الزمن ، إلى شجاعتهم وحسن امتثالهم ، وذكرهم لله ، وبركة رسول الله ﷺ ، بالرغم من قلة عددهم ، مقارنة مع سائر الأقاليم من الفرس والروم والفرس والترك والصقالبة والبربر والحبوش وأصناف السودان والقبط وطوائف بني آدم. وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها في أقل من ثلاثين سنة.(٥١)

ويرى أبو نعيم الأصفهاني أن ذِكْر الله سبب موصل إلى الاصطفاء والولاية ، ومن ثم وسيلة لعلم الأنبياء والرشد والهدى ، وسبب للقوة والتمكن والثبات والقدوة والإمامة للنَّاس.(٥٢)

ويتحسر القرطبي الذي شهد سقوط الأندلس ، على تخلي المسلمين عن الذكْر ومسببات النصر والتمكين ، وإنَّ الأعمال القبيحة ، والنيات الفاسدة ؛ هي سبب الهزائم والانكسار ، بالرغم من كثرة عدد المسلمين ، وقلة العدو ، وإنَّ ذلك تكرر كثيراً في عهده.

---

(٥٠) ينظر ، الشنقيطي ، أضواء البيان ، مصدر سابق ، ٨ / ٢١.

(٥١) ينظر ، ابن كثير ، التفسير ، مصدر سابق ، ٢ / ٣١٧.

(٥٢) ينظر ، أبو نعيم ، حلية الأولياء ، مصدر سابق ، ١٠ / ٢٦٥.

وفي صحيح البخاري قال أبو الدرداء : إنَّما تقاتلون بأعمالكم وفيه مسند أنَّ النبي ﷺ قال : **" هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم "**[٥٣] ، فالأعمال فاسدة ، والضعفاء مهملون ، والصبر قليل ، والاعتماد ضعيف ، والتقوى زائلة ، فهذه أسباب النصر وشروطه ، وهي معدومة عندنا ، غير موجودة فينا ، فإنا لله وإنا إليه راجعون على ما أصابنا وحل بنا ، بل لم يبق من الإسلام ، إلا ذكره ولا من الدِّين إلا رسمه ؛ لظهور الفساد ؛ ولكثرة الطغيان ؛ وقلة الرشاد ، حتى استولى العدو شرقاً وغرباً براً وبحراً ، وعمت الفتن وعظمت المحن ، ولا عاصم إلا من رحم.[٥٤]

ويرى الباحث أن ما ذهب إليه علماء المسلمين من سرعة وقوة انتشار الحضارة الإسلامية في العالم يعود إلى التمسك بذكر الله بكل معانيه وأنواعه ودرجاته ، وأن سبب سقوط حضارة المسلمين في الأندلس- كما أشار القرطبي- يعود إلى ترك الذكر والاشتغال بالشهوات والوقوع في الشبهات.

ثانياً : تحقيق الحياة والمعرفة :

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : **" مثل الذي يذكر ربه ، والذي لا يذكره مثل الحي والميت "**.[٥٥] وفي رواية مسلم : **" مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحي والميت "**.[٥٦]

فالذي يوصف بالحياة أو الموت هو من يسكن البيت لا السكن ، وجاء تشبيه الذاكر بالحي ؛ لأنَّ ظاهره مُتَزَيِّنٌ بنور الحياة وباطنه بنور المعرفة ، وجاء تشبيه غير الذاكر بالبيت

---

(٥٣) صحيح البخاري - كتاب الجهاد والسير - باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب ، ٤/ ٣٦ ، حديث رقم: ٢٨٩٦.

(٥٤) ينظر ، القرطبي ، التفسير ، مصدر سابق ، ٣/ ٢٥٥.

(٥٥) صحيح البخاري ، البخاري ، مصدر سابق ، كتاب: فضل ذكر الله عز وجل ، ٨/ ٨٦ ، حديث رقم: ٦٤٠٧.

(٥٦) مسلم ، صحيح مسلم ، باب: استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ١/ ٥٣٩ ، حديث رقم: ٧٧٩.

الذي ظاهره عاطل وباطنه باطل ، وأنَّ الحي فيه نفع لمن والاه ، والضُرّ لمن عاداه ، وليس تلك الصفات في الميت.[٥٧]

إن كثيراً من الناس لهم همم هوابط لا تحدث فعلا ولا انفعالاً بسبب تركها للذكر بمعناه الواسع ، وفقدها نور الحياة ونور المعرفة.

ثالثاً : النجاة من العذاب والوقاية من الأمراض النفسية :

عن أبي الدرداء ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال : **" ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأرضاها لكم عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إعطاء الذهب والورق ومن أن تلقوا عدوكم فتضربون أعناقهم ويضربون أعناقكم قالوا : بلي يا رسول الله قال : ذكْرُ. قال : وقال : معاذ بن جبل ما عمل امرؤ بعمل أنجى له من عذاب الله من ذكْرُ "**.[٥٨] يرى ابن حجر أن في الحديث تفضيل الذكْر على الإنفاق والجهاد ، بالرغم من أنَّ كلا من الجهاد والنفقة يتعدى نفعهما الفرد إلى المجتمع.[٥٩]

والعلة - كما يرى القضاعي- في أنَّ الذكْر خير وأفضل وأرضى وأرفع وأزكى من كل سائر العبادات المتمثلة في الإنفاق والقتال وغيرهما ، العلة في ذلك ؛ لأنَّ كل هذه العبادات تُعَدُّ وسائل ووسائط وضعها الشَّرع للتقرب بها إلى الله ، بينما الذكْر هو الغاية الكبرى والمقصد الأسنى والقاعدة التي تبنى عليها كل أركان وشعب الإيمان ؛ وهذا التفضيل للذكر على سائر العبادات يفهم على عمومه ، وإلا فالشجاع الذي ينتفع الناس بشجاعته فالقتال أفضل له من الذكر ، والغني الإنفاق على الفقراء أفضل له وقل مثل ذلك في كل تخصص.[٦٠]

---

(٥٧) ينظر ، ابن حجر ، فتح الباري شرح صحيح البخاري ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ، دار المعرفة - بيروت ، ط١ ، ١٣٧٩هـ ، ١١ / ٢١٠-٢١١.

(٥٨) أبو عبد الله ، المستدرك على الصحيحين ، مصدر سابق ، ١ / ٦٧٣.

(٥٩) ينظر ، ابن حجر ، فتح الباري ، مصدر سابق ، ٦ / ٥.

(٦٠) أبو عبد الله القضاعي ، مسند الشهاب ، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي ، مؤسسة الرسالة – بيروت ، ط٢ ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦ ٢ / ٢٤٦.

ويرى البيهقي أن المرء لا يبلغ مقام الحب إلا بالمداومة على الذكر الدال على محبة الله ، والذاكر أبعد الناس عن الضجر والملل ، خاصة الذكر باللسان وبالقلب ، فثمرته أنه يردع عن التقصير في الطاعات والتهافت في المعاصي والسيئات.(٦١)

إنَّ الجمع بين الذكْر وقراءة القرآن ، والجمع بين الذكْر والشَّرائع ، يُعَدُّ المنهج الأفضل في التزكية والإصلاح.

المطلب الرابع :

أوقات الذكْر :

جاءت نصوص كثيرة يفهم منها أن الذكر بمعناه الشامل يستوعب كل الوقت ، والمثال على ذلك في الآتي :

أولاً : السياسة والذكر : قال تعالى : ﴿ **اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي** ﴾ [طه : ٤٢] ، فالونى الذي يحمل معنى الضعف والفتور والكلال والإعياء ، وهو أمر منهي عنه ، يدل على أمر الله لعباده بالذكْر في جميع الأحوال ، في حالة القيام والقعود وعلى الجنوب ، وعند لقاء العدو.(٦٢)

فموسى وهارون قادمان على فرعون ليؤسسا حضارة تقوم على الوحي وتكون بديلاً للحضارة الفرعونية فهما مطالبان بالذكْر حتى عند بلاط السلاطين ، وفي ذلك إشارة إلى أنَّ النجاح في كل شيء حتى في عالم السياسة لا يتم إلا بدوام الذِكْر.

ثانياً : الحرب والذكر : قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [الأنفال : ٤٥] ، فأمر الله للمسلم ليذكْر الله حتى في حالة الحرب ، دليلٌ على أهمية الذكْر ، خاصة في أوقات الضيق والأزمات ، وأنَّ الذكْر من العوامل الحاسمة في إدارة الحروب والنصر والظهور ، ذلك لأنَّه يثبت

(٦١) ينظر ، البيهقي ، شعب الإيمان ، مصدر سابق ، ١ / ٣٨٨ ، ٣٩٥.

(٦٢) ينظر ، الشنقيطي ، أضواء البيان ، مصدر سابق ، ٤ / ١٤.

القلوب ، وهو العنصر الحاسم للمعركة لِمَا فيه من الصبر ، ويدخل في معنى الذكْر ، دعاء الله وسؤاله النصر ، وخذلان العدو وقطع دابره.(٦٣)

عن أبي هريرة قال : كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة ، فمر على جبل يقال له جُمْدَان. فقال : **" سيروا هذا جُمْدَان سبق المفردون. قالوا : وما المفردون يا رسول الله قال : الذاكرون الله كثيرا والذاكرات "**.(٦٤) ؛ **" جُمْدَان "** ، بضم الجيم وسكون الميم جبل بين قدير وعسفان من منازل أسلم ، والعلاقة بين الذكْر وجُمْدَان التفرد ، فجمدان جبل منفرد لحاله ليس حوله جبال ، فالذاكر يعتزل صخب الحياة ، ويلزم نفسه بالأمر والنهي. وفي رواية وصفهم النبي ﷺ بالاستهتار الذي يعني الولع بذِكْر الله والمداومة عليه.(٦٥) وهذا يعني أنَّ الذكْر ليس له حد من وقت ولا مكان ، فهو الأفضل وأصحابه هم السابقون ، والإشارة من القاضي أبي بكر ابن العربي ، بأنَّهم هم الملتزمون بالأمر والنهي ، يشير إلى معنى أوسع للذكر ، فالفرد والمجتمع الذي يضبط كل حركة حياته بالوحي يكون مثل جُمْدَان في تفرده ، ولَعَلَّ التشبيه بهذا الجبل فيه إشارة إلى قلة من يلتزم بدوام الذكْر ، وكون هذه الحادثة كانت في أحد طرق مكة ، يدل ذلك على أنَّ النبي ﷺ أراد أن يفهم أصحابه أنَّ الثبات والهجرة لإقامة دين الله لا يكون إلا بدوام الذِكْر.

وجاء في وصية رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه عندما بعثه إلى اليمن ، أن يذكْر الله عند كل حجر وشجر ، ووصى أبا رزين أن يذكْر الله عندما يكون في الخلاء ، ويرى البيهقي رحمه الله أنَّ هذا الذكْر ، مراد به ذكر القلب ؛ وذلك لغياب المجتمع ، فيكون المرء أقرب إلى الذنوب بسبب غياب رقابة المجتمع والدولة.(٦٦)

---

(٦٣) ينظر ، الزمخشري ، الكشاف ، مصدر سابق ، ٢ / ٢١٥.

(٦٤) مسلم ، صحيح مسلم ، مصدر سابق ، باب: الحث على ذكر الله تعالى ، ٤ / ٢٠٦٢ ، حديث رقم: ٢٠٦٣.

(٦٥) ينظر ، ابن الإمام ، سلاح المؤمن في الدعاء ، تحقيق: محيي الدين ديب مستو ، دار ابن كثير - دمشق - بيروت

(٦٦) ينظر ، البيهقي ، شعب الإيمان ، مصدر سابق ، ١ / ٤٠٥.

ولَعَلَّ ربط الذكْر بالحجر والشجر والخلاء الشاسع ، لأنَّها آيات الله المبثوثة في الكون ، فهي أدعى إلى وصل القلب بالله ، خاصة في حالة السَّمَاع كما أشرنا من قبل.

المبحث الثالث

الجمع بين العلم والعمل

يعد الجمع بين العلم والعمل من أهم مقومات الحضارة ، والأمة التي تفصل بينهما لا تقوم لها حضارة نافعة للإنسانية ، ويمكن الوقوف على هذا من خلال المطالب الآتية :

المطلب الأول :

مفهوم العلم

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ.(٦٧)

يرى ابن حجر أن تنكير لفظتي طريقاً وعلماً في الحديث ، يراد به العموم ليشمل كل أنواع الطرق التي تؤدي إلى أنواع العلوم الدينية المختلفة ، وليشمل التنكير القليل والكثير من العلم.(٦٨)

ويذكر ابن حجر أنَّ العلم سبب للخشية ؛ لأنَّ هذا العلم يوفر لصاحبه الاطلاع على قدرة الله ، وعظيم سلطانه.(٦٩)

ويرى ابن رجب الحنبلي أنَّ التفكر في ملكوت السموات والأرض ، وأمور الآخرة ، وما فيها من وعد ووعيد ، يزيد الإيمان في القلب ؛ وأنَّه سبب لنشأة كثير من أعمال القلوب ، من حب وتوكل وخشية ورجاء ، وإنَّ هذا التفكر أفضل من نوافل الأعمال

(٦٧) الترمذي ، سنن الترمذي ، باب: في فضل العلم والعلماء ، تحقيق: بشار عواد معروف ، دار الغرب الإسلامي – بيروت ، ط١ ، ١٩٩٨ م ، ٤/ ٣٢٥ حديث رقم: ٢٦٤٦.

(٦٨) ينظر ، ابن حجر ، فتح الباري ، مصدر سابق ، ١/ ١٦٠.

(٦٩) ينظر ، ا بن حجر ، فتح الباري ، المصدر نفسه ، ٦/ ٥١٨.

البدنية ، وإنَّ هذا هو ما يراه كثير من التابعين ، في مقدمتهم عمر بن عبد العزيز ، بل وذهب كعب إلى أنَّ هذا النَّوع من التفكر ، الذي يؤدي إلى الخشية المبكية أفضل من التصدق بذهب بزنة شخص.(٧٠)

ويرى الباحث أن الفصل بين العلم والعمل سببه الفهم المنحرف والضيق لمعنى العلم ، والصحيح ما ذهب إليه ابن حجر وابن رجب ، فالعلم بهذا الفهم يستوعب كل العلوم الإنسانية الاجتماعية والعلوم الطبيعية بمختلف تخصصاتها ؛ فكل صاحب صنعة وفن ينفع البشرية بعلمه فهو سالك لطريق الجنة إذا أسس ذلك على الإيمان بالله واليوم الآخر.

المطلب الثاني :

تقديم فضل العبادة على فضل العلم :

ظهر في التاريخ الإسلامي تياران أحدهما يقدم العبادة على العلم وآخر يقدم العلم على العبادة ، وكان لهذا التباين أثر كبير في قعود الأمة عن الشهود الحضاري ، وهذان التياران هما :

التيار الأول : العبادة أفضل من العلم : يمثل هذه المدرسة كل من أبي طالب المكي ، و السهروردي ، والإمام الغزالي ، فالغزالي يقسم العلم إلى علوم شرعية وغير شرعية ، ويعني بالشَّرعية تلك العلوم المستمدة والمستفادة من الأنبياء ، ثُمَّ يقسم العلوم غير الشَّرعية إلى علوم محمودة ، وهي تلك التي ترتبط بها مصالح أمور الدنيا ، مثل الطب والحساب ، والهندسة...الخ.

فمعرفة أصول هذه العلوم ، عند الغزالي ، فرض كفاية ، إذا قام به البعض سقط عن الباقين ، وإنْ أهمله المجتمع أثم الجميع ، بينما التعمق في دقائقها فضيلة ؛ وقسم من العلوم

(٧٠) ينظر ، ابن رجب الحنبلي ، جامع العلوم والحكم ، تحقيق: شعيب الأرناؤوط - إبراهيم باجس ، مؤسسة الرسالة – بيروت ، ط٧ ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م ١ /٢٤٩.

المباحة ، وهي علوم الأشعار والتاريخ والأدب ، بشرط خلوها من السخف ، وقسم من العلوم المذمومة ، وهي مثل علم السحر والطلسمات وعلم الشعوذة والتلبيس.[٧١]

ويفسر **" الغزالي "** البله الذي جاء في حديث ، **" إنَّ أكثر أهل الجنة البله "**[٧٢] أي البله في أمور الدنيا[٧٣] بما فيها علم الطب والحساب والهندسة وغيرها ؛ بحجة أنَّ القوة العقلية ، عند البشر ، تعجز عن الجمع بين علم الآخرة وعلم الدنيا ، فهما علمان متنافيان مثل الأضداد ، و كل من صرف همته لأحدهما أضاع الآخر ، وقصرت فيه بصيرته ، مستشهداً بأمثال ضربها علي كرم الله وجهه ؛ لتصوير هذا التناقض والتنافر بين العلمين ، عندما يشبههما بكفتي الميزان ، أو الشَّرق والغرب أوالضرتين.

ويقدم **" الغزالي "** نماذج عملية من الواقع لحالة التنافر بين علمي الدنيا والآخرة ، وذلك عندما يشير إلى أنَّ الواقع يثبت أنَّ من تخصص في الطب والهندسة ، والرياضيات ، والفلسفة ، كلهم يتصفون بالجهل في دقائق علم الآخرة ، المتمثل في علم أحوال القلوب ، وآفات الأعمال ، والعلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله.

وكذلك من برع وتخصص واهتم بعلم الآخرة ، غالباً ما يتصف بالجهل في أمور الدنيا ، ويعتقد **" الغزالي "** أنَّ هذا الجمع بين العلمين لا يكون إلا للرسل والأنبياء ، لأنَّ الله قد سخرهم لِمَا ينفع النَّاس في معاشهم ومعادهم ، وأمدهم وأيدهم بروح القدس.[٧٤]

إنَّ مثل هذا الفهم -الخاطئ من الغزالي- هو الذي أدى إلى أن يهجر بعض المسلمين شتى ميادين الحياة ، ويتعطل فيها الإبداع والتطور ، ويتفرغوا لإعمار قلوبهم ، بحجة

---

(٧١) ينظر ، الغزالي ، الإحياء ، مصدر سابق ، ١ / ٢٧.

(٧٢) أبو جعفر الطحاوي ، شرح مشكل الآثار - باب بيان مشكل ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال أكثر أهل الجنة البله وما يدخل في ذلك ، ٧/ ٤٣٧ ، حديث رقم: ٢٩٨٢ ، سئل عن سلامة بن روح فقال ليس بالقوي محله عندي محل الغفلة وقال أيضا أيلي ضعيف منكر الحديث قال نعم يكتب على الاعتبار ، الكلبي المزي ، تهذيب الكمال: [١٢ / ٣٠٤].

(٧٣) ينظر ، الغزالي ، الإحياء ، مصدر سابق ، ٣/ ٢٠.

(٧٤) ينظر ، المناوي ، فيض القدير ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ، ط١ ، ١٣٥٦هـ ، ٢/ ٧٩.

استحالة الجمع بين العلمين ، وأنَّ الاهتمام بالعبادة وعلم الآخرة هو المخلص والمطلوب ؛ وكانت النتيجة أن تقدمت الأمم الأخرى وتمكنوا من ناصية علم الدنيا ، وملكوا أسباب القوة ، فاستعمروا بها العالم الإسلامي.

ومن الذين أسسوا لهذا الفهم- استحالة الجمع بين علم الدنيا وعلم الآخرة- أبو طالب المكي ، وهو من الذين أثروا في فكر الغزالي ، إذ يرى أنَّ العلم النافع هو علم **" الإيمان واليقين "** ، وأنَّ من لم يتحصل على هذا النَّوع من العلم ، فإنَّه يكون متلبساً بالشِّرك والنفاق ، والشك ، بل رُبَّما مات على سوء الخاتمة.

ويرى أنَّ كل أنواع العلوم الشَّرعية ، سهلة الحفظ والنشر لكل النَّاس ، حتى المنافق ، وصاحب البدعة ، بل وحتى المشرك ؛ لأنَّ هذا النَّوع من العلوم ، نتيجة الذهن وثمرة العقل ، إلا علم الإيمان واليقين ، الذي لا يحصل عليه إلا المؤمن الموقن.(٧٥)

ويرى السهروردي الصوفي ، وهو من ذات المدرسة ، أنَّ العلم في حديث فضل العالم على العابد ، لا يراد به علم البيع والشراء ، وهو يمثل الجانب الاقتصادي ، أو علم الطلاق والعتاق ، وهو يمثل الحياة الاجتماعية بكل مجالاتها ، بل يراه العلم **" بالله وقوة اليقين "** ، وهو علم الآخرة ، متعللاً بأنَّ العبد يمكن أن يكون عالماً بالله ، مع أنَّه جاهل في مجال علم فروض الكفايات ؛ ويدلل على فهمه هذا بجيل الصَّحابة ، الذي كان في مجال علم حقائق اليقين ودقائق المعرفة- وهو علم الآخرة- أكثر عمقاً وفهماً من جيل التابعين ، الذين رُبَّما وجد فيهم من هو أعلم بالفقه والفتوى من بعض الصَّحابة ؛ لأنَّ العلم المختلط بالعمل يحكم العبادة ، ويصححها ، ويخلصها ويصفيها.(٧٦)

رُبَّما نجد العذر لأصحاب هذه المدرسة ، لتأثرهم بالبيئة التي تربوا فيها ، حيث بلغت التخصصية في علم الفقه ذروته ، وخاض الفقهاء في مسائل افتراضية موغلة في الجزئية والفرعية ، بينما تراجعت حركة المجتمع على صعيد أعمال القلوب.

---

(٧٥) ينظر ، أبو طالب المكي ، قوت القلوب ، مصدر سابق ، ٢ /٣٥٣.

(٧٦) ينظر ، المناوي ، فيض القدير ، مصدر سابق ، ٤ /٤٣٢.

والحق أنَّه لا شيء يمنع من الجمع بين العلمين ، ولو كان هذا الجمع نسبياً لا يبلغ درجة الأنبياء والرسل ، فقد كان داود عليه السلام مشتغلاً بالصناعة ، قال تعالى : ﴿ **وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ** ﴾ [الأنبياء : ٨٠] ، كما كان مشتغلاً بعلم السياسة والحكم ، قال تعالى : ﴿ **فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾ [البقرة : ٢٥١] ، وقال : ﴿ **يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ** ﴾ [ص : ٢٦] ، كما كان شعيب مشتغلاً بالحياة الاقتصادية ، ويسعى إلى إصلاحها ، وردها إلى الله ، قال تعالى : ﴿ **وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** ﴾ [الأعراف : ٨٥] ، وقال تعالى : ﴿ **قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ** ﴾ [يوسف : ٥٥] ، إنَّ تكرار كلمة الإصلاح والفساد في جميع ما سبق من آيات ، يقف دليلاً قوياً على أنَّ المنهج الصحيح ، هو إصلاح جميع أوجه الحياة ، وأنَّ هذا الإصلاح لا يتأتى إلى لمن أحاط علماً بهذه المجالات وما فيها من انحرافات ، وسعى في ردها إلى الله ، وأنَّه ليس ثمة ثنائية وتنافر بين علم الدنيا وعلم الآخرة ؛ وأنَّ الاشتغال بالعلوم الدنيوية لإصلاح كل مجالات الحياة ، لا يمنع المرء من تحصيل علم **" الإيمان واليقين "** ، بل إنَّ المزج بين العلمين ، هو الذي يخرج المرء من دائرة الكفر والنفاق والشِّرك ، والموت على سوء الخاتمة.

وقد قال ، بهذه الثنائية المتنافرة ، قوم شعيب عندما قصرت هممهم وعقولهم عن استيعاب إمكانية الجمع بين العلمين ، قال تعالى ، حكاية عنهم : ﴿ **قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ** ﴾ [هود : ٨٧]

ولقد جاء أصحاب رسول الله ﷺ ومارسوا هذا المزج بين العلمين في منهجهم الإصلاحي الذي ورثوه عن رسول الله ﷺ ، وكذلك التابعون من بعدهم ، كل ذلك قبل أن تسري في الأمَّة مثل هذه المفاهيم التي تحمل طابع العلمانية ، والانسحاب من ميادين الحياة ، والتمركز في رؤوس الجبال والمغارات وعلى شواطئ البحار والأنهار ، بحجة إصلاح النَّفس واستحالة الجمع بين العلمين.

إنَّ مفهوم العالم الفقيه في صدر الإسلام ، هو العالم الذي يضرب في كل تلك المجالات بسهم وافر من الفقه والاجتهاد ، ولَّما ضعف النَّاس ، ودخلت التخصصية ، كان لا بد من أن يشمل لفظ العالم - الذي يعلو درجات على العابد - من برع في كل فن ووجه هذا العلم إلى الله ، ونفع به البشرية ؛ وكل ذلك يؤكد حقيقة أنَّ التزكية والتطهر والإصلاح على صعيد الفرد والمجتمع وكل أوجه الحياة ، لا يتم إلا عن طريق المزج بين العلم والعمل في كل مجال وصعيد.

وأمَّا قضية الجمع بين العلم والعمل ، فهي حقيقة تسلم بها كل مدارس الإصلاح ، فالغزالي يرى أنَّ العلم مع العبادة أشرف جوهراً من العبادة التي تخلو من علم ، بينما العلم الذي يخلو من العبادة هو هباء منثور ، فلا بد للعبد من أن يكون له من كلا الأمرين حظ ونصيب.[٧٧] ، ولكِنْ الغزالي لا يرى التعمق في العلم أفضل من التعمق في العبادة.

التيار الثاني : العلم أفضل من العبادة.

وهو تيار يشمل طائفة من مدرسة التصوف ، وغالب أهل السنة والجماعة ، وهو التيار الوسط ، الذي كان على نهجه الصَّحابة والتابعون ، وعامة الفقهاء ، ومن أقوى أدلتهم جملة من الأحاديث ، منها حديث ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : **" فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد "**.[٧٨]

---

(٧٧) ينظر ، المناوي ، فيض القدير ، مصدر سابق ، ٤ / ٤٣٢.

(٧٨) ابن ماجة ، سنن بن ماجه ، باب فضل العلم والحث على طلب العلم ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي/١/ ١٥٠ ، حديث رقم: ٢٢٢.

وعن أنس بن مالك قال : قال : رسول الله ﷺ : **" طلب العلم فريضة على كل مسلم وواضع العلم عند غير أهله كمقلد الخنازير الجوهر واللؤلؤ والذهب "**.[٧٩]

وقال ﷺ : **" فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب "** ، أورد أبو داود هذا الحديث في أول كتاب العلم تحت باب الحث على طلب العلم ، مما يدل على أهمية العلم.[٨٠] ويرى الإمام **" الغزالي "** أنَّ في الحديث دليلاً على أنَّ رتبة العمل المقترن بالعلم ، شبهت بدرجة النبوة لعظمتها ، وأنَّه لا قيمة لعمل لا يقوم على العلم.[٨١]

ويرى **" الطيبي "** في هذا الحديث دليلاً على أهمية المزج بين العلم والعبادة ، ذلك لأنَّ العلم هو مقدمة العمل ، ولا يصح العمل ويثمر ؛ إلا إذا كان العلم صحيحاً ؛ ويرى الذهبي أنَّ العابد رُبَّما كان أقرب للسلامة من العالم ، لأنَّ مصير العلم بدون عمل ، هو الوبال والهلاك ، ويشير الذهبي إلى الفقهاء الذين حصروا همتهم في الرئاسة.

ويفهم ابن العربي أنَّ العلم في هذا الحديث ، لا يعني أن يصل المرء إلى درجة الفقهاء ، ولكِنْ يكفيه من العلم ما يصحح به عبادته ، وأنَّ العابد الذي ورد ذكره في الحديث ، هو الذي ليس له أدنى علم بفقه العبادة التي يؤديها ؛ ويصف الغزالي نوعية هذا العابد الجاهل بالعبث والفسوق ، ولا يصح أن يطلق عليه اسم العابد ، ولكِنْ عندما تنحصر المقارنة بين عابد معه من العلم ما يصحح به عبادته ، وبين عالم فقيه ليس له عبادة ، فالعابد أفضل ؛ ولكِنْ هذا التيار يخالف مدرسة التيار الأول في أنَّ التفرغ للفقه والتعمق فيه مقدم على النوافل التي تُمَثِّلُ جانب العبادة ، ذلك لأنَّ العالم الفقيه ، كما جاء في الحديث **" إنَّ الله عز وجل وملائكته وأهل السموات والأرضين حتى النملة في**

---

(٧٩) ابن ماجه ، السنن ، مصدر سابق ، ١ / ٨١.

(٨٠) أبو داود السجستاني الأزدي ، السنن ، باب: الحث على طلب العلم ، تحقيق: شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي: دار الرسالة العالمية ، ط١ ، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

(٨١) ينظر ، الغزالي ، الإحياء ، مصدر سابق ، ١ /١٧.

جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم النَّاس الخير "[٨٢] ، هذا العالم يعلم النَّاس سبل الخير والرشاد ، وفي مقدمتها الاستغفار ، الذي هو سبب لتخليص المجتمع من الأوضار والأدناس ، لأنَّ الفتوى والعلم والإرشاد سبب لاستقامة نظام الحياة في كل أوجهها ؛ ويأتي هذا العرفان بالجميل ، لهذا العالم ، من جميع الوجود بما في ذلك الله سبحانه وتعالى.

ولا رتبة فوق رتبة من تشتغل الملائكة ، وجميع المخلوقات بالاستغفار والدعاء له إلى يوم القيامة ، ولهذا كان ثوابه لا ينقطع بموته ؛ وأمَّا إلهام الحيوانات الاستغفار له ، فقيل لأنَّها خلقت لمصالح العباد ومنافعهم ، والعلماء هم المبينون ما يحل منها وما يحرم ، ويوصون بالإحسان إليها ودفع الضُرّ عنها حتى بإحسان القتلة ، والنهي عن المثلة ، فاستغفارها له شكر لتلك النعمة ، وذلك في حق البشر آكد لأنَّ احتياجهم إلى العلم أشد ، وعود فوائده عليهم أتم.[٨٣]

ويرى الباحث أن الجمع بين التيارين ممكن فكثير من الذين غيروا مجرى التاريخ في هذه الأمة وساهموا في بناء الحضارة الإنسانية كانوا هم الجامعين بين العبادة والعلم بمعناه الواسع ، وكثيراً ما يوصف أحدهم بأنه الحافظ والمحدث والأصولي والفقيه والفيلسوف والمتطبب والفلكي- هذا في الصفات العلمية- ويوصف بالزاهد والورع والتقي هذا في الجانب التعبدي العلمي.

ويرى العلماء أنَّ بداية انحدار المجتمع وانحطاطه ، وتخلفه عن التطهر والتزكية والإصلاح ، تبدأ عندما ينحسر العلم ويحل محله الجهل ، أو السلوك المناقض للعلم والمعرفة الدينية ، وأنَّ هذا الانحسار يَتَمَثَّل في موت العلماء الربانيين ، الذين يجمعون بين العلم والعمل ، ويحملون المجتمع على ذلك ، ويستدلون على ذلك بالحديث الصحيح الذي يرويه البخاري في باب كيف يقبض العلم ، عن عبد الله بن عمر قال سمعت رسول

---

(٨٢) الترمذي ، سنن الترمذي ، مصدر سابق ، ٥ / ٥٠. هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ.

(٨٣) ينظر ، المناوي ، فيض القدير ، مصدر سابق ، ٤ / ٤٣٢.

الله ﷺ يقول : **" إنَّ الله عز وجل لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ولكِنْ يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ النَّاس رؤوسًا جهالاً، فسُئِلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا "**.(٨٤)

ويرى القاضي **" عياض "** تحقق هذا الانحدار في عصره ، وذلك بذهاب العلماء الربانيين ، وحلَّ محلهم أهل الجهل والتقليد الذين يفتون بجهلهم ، ويتعجب الشيخ **" قطب الدِّين "** لِمَا قاله القاضي عياض مع توفر العلماء في عهد **" عياض "** ، ويرى **" قطب الدِّين "** أنَّ قمة الانحدار إنَّما كانت في عهده هو ، بينما يرى **" العيني "** ، أنَّ الفقهاء والعلماء الربانيين كانوا في عهد الخطيب بينما الجهل في عهده هو ، وذلك عندما علا الجهلة مراكز الإفتاء والمجالس التشريعية ، والتدريس في المؤسسات التعليمية.(٨٥)

لم يكن هذا الفراق النكد بين العلم والعمل وليد اللحظة ، بل ظهرت نواته مبكرة ، فقد أشار إلى ذلك أبو طالب المكي ، بما رواه عن عبد الرحمن بن يحيى وغيره من العلماء ، وذلك أنَّ في صدر التاريخ الإسلامي ، كان من يتولى الحكم هم ساسة علماء ، لهم دراية كاملة بالعلم الشَّرعي من أحكام وفتاوى تغنيهم عن الرجوع إلى المفتين ، بل وكانت العامة ترجع إلى هؤلاء الحكام والساسة في الفتوى ؛ ولكِنْ الأمر ضعف بمرور الأيام ، فانشغل الحكام والساسة عن العلم والفتوى ؛ بسبب تعلقهم بالدنيا والشهوات ، وأحياناً انشغالهم بالحروب.(٨٦)

ويلاحظ أنَّ التحدي الذي يواجه المسلمين اليوم- وهم يواجهون العلمانية التي تعلي من قيمة العمل والعلم غير الشَّرعي- هو كيف يستطيع المرء أن يخوض معترك الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وهو متسلح بالعلم الشَّرعي ، يرسم به خطوط عمله ، ويرد كل مجالات الحياة إلى علم حقائق اليقين ودقائق المعرفة.

---

(٨٤) البخاري ، صحيح البخاري ، مصدر سابق ، باب: كيف يقبض العلم ، مصدر سابق ، ١/ ٣١ ، حديث رقم: ١٠٠.

(٨٥) ينظر ، العيني ، عمدة القاري ، مصدر سابق ، ٢/ ٨١-٨٣.

(٨٦) ينظر ، أبو طالب المكي ، قوت القلوب ، مصدر سابق ، ٢/ ٢٧١.

إنَّ التناقض والفصل بين مفهوم علم الآخرة وعلم الدنيا من ناحية ، وبين العلم والسلوك من ناحية أخرى ، هو الذي أوقع هذه الأمَّة في التخلف في كل مجالات الحياة ، فلا هي أحسنت آخرتها ولا هي أصلحت دنياها.

" **فابن القيم** " ، يذكر ، أنَّ من المفاهيم والسلوكيات التي أدخلت على هذه الأمَّة الخلل والنقص وأبعدتها عن المنهج الصحيح للإصلاح والتزكية ، والتمكين ، تلك المفاهيم والسلوكيات التي تفرق بين الحال والعلم ، وأنَّ الذين تولوا ذلك هم بعض المتأخرين المنتسبين إلى مدرسة التصوف.(٨٧)

فالحال عندهم هو نتاج التفرغ للعبادة ، ويتمثل في لذة العبادة والمواجيد والأذواق التي هي ثمرتها ، وأنَّ الاشتغال بالعلم يفرقها ويقطع هذه الجمعية ، ومن هنا انسحبوا من كل ميادين الحياة ، وإنْ ولجوها فعلي إغماض وإكراه.

ويمثل الانحراف الآخر - في نظر ابن القيم - الطائفة التي انشغلت بالعلم ولم تجتهد في العبادة ، فهي مثل سابقتها ، ترى استحالة الجمع والمزج بين العلم والعبادة ، فتركوا العبادة بحجة التفرغ لتحصيل العلوم والبحث عن دقائقها ، فكانت النتيجة قلة الإخلاص واستوحاش الأرواح ، وضاعت الغاية من العلم إذ لم تكن لله لتورث صاحبها علم حقائق اليقين ودقائق المعرفة.

فالوضع الصحيح عندما يكون العلم حاكماً على الحال والعمل ، فهو الذي يقوده ويتصرف فيه وينير له خطوات السير والإصلاح ، وكذلك يكون الحال مانعاً للمرء من أن يكون واقفاً مع علمه وقشوره تاركاً العبادة ، بل يدعوه إلى أن ينفذ من خلال هذا العلم إلى غاياته التي هي لله.

وهذا من تقصير الفريقين حيث شغل أحدهما عن السير في العلم ، وضعف الآخر عن الحال في العلم ، فلم يتمكن كل منهما من الجمع بين الحال والعلم ، وصاحب التمكين يتصرف علمه في حاله, ويحكم عليه وينقاد لحكمه, ويتصرف حاله في علمه ، فلا يدعه أن

(٨٧) ينظر ، ابن القيم ، المدارج ، مصدر سابق ، ٣/ ١٣٥.

يقف معه ، بل يدعوه إلى غاية العلم, فيجيبه ويلبي دعوته ، فهذه حال الكمل من هذه الأمَّة ، ومن استقرأ أحوال الصَّحابة رضي الله عنهم ، وجدها كذلك.[٨٨]

فالشاهد من كلام ابن القيم أنَّ أهل العبادة انحرفوا عن الطريق ، عندما ظنوا أنَّ الاشتغال بالعلم ودقائقه ، سبب للإعاقة عن السير إلى الله ، وإصلاح القلب والنفس ، وكذلك انحرف أهل العلم ، عندما ظنوا أنَّ العبادة من قواطع الطريق إلى الله ، وقليل -كما أشرنا- من المدارس هم الذين جمعوا بين العلم والعمل والحال ، وهم أهل التمكين.

ويلاحظ أنَّ حصيلة الفكر الاستعماري ، الذي ورث هذا الوضع ، هي إخراج العلم والعمل معاً من دائرة الشَّرع ، فهماً وتطبيقاً ، وجعل مصطلح العلم ينحصر في العلوم الطبيعية ، وما سوى ذلك فهو هرطقة وخرافات ، لا أثر لها في إعمار الأرض ولا التمكين ، وأحدث بذلك تضييقاً لمعنى العلم ، إذ حصره في العلوم الطبيعية ، تماماً مثل ما ظن بعض المسلمين أنَّ العلم الموصل إلى الله هو علم الشَّريعة وحده ، ولا يمكن للمرء أن يدرك قدرة الله وعظمته عبر العلوم الطبيعية.

ولم يفت على علماء السلوك في الإسلام أن ينبهوا إلى ضرورة الجمع بين العلم والعمل والحال ، وأثره في تزكية النَّفس ، فقد قرر الغزالي في إحيائه ، عندما جعل العلوم والأعمال التي يتقرب بها النَّاس إلى الله تعالى ثلاثة ، أولها : العلم المجرد ، وهو علم المكاشفة ، وثانيها : العمل المجرد ، وأحد مظاهره عدل السلطان وضبطه للنَّاس ، وثالثها : المزج بين العلم والعمل ، وهو علم الآخرة ، فيحض الغزالي على الجمع وينهى عن التقليد.[٨٩]

فعدل السلطان يمثل العمل السياسي ، ويدخل في معناه ، من يعملون في التجارة أو الزراعة أو الطب... الخ ، طالما أنَّ هذا العمل يؤدي إلى خدمة المجتمع ، ففي رأي الغزالي أنَّ الجمع بين علم المكاشفة والعمل الذي يرتبط بجميع أوجه الحياة ، وفي مقدمتها الحياة

---

(٨٨) ينظر ، ابن القيم ، المصدر نفسه ، ٣/ ١٣٥.

(٨٩) ينظر ، الغزالي ، الإحياء ، مصدر سابق ، ١/ ٢٤.

السياسية ، هو قمة التزكية والسير إلى الله ، وهو الذي يبعد المرء من التقليد الذي يُعَدُّ أكبر معوق عن التقدم ، بل يمثل عند الغزالي ظاهرة مرضية تدخل صاحبها دائرة السمعة والرياء.

وقد أشار رسول الله ﷺ إلى هذه الثنائية المتنافرة في المجتمعات التي ظهر فيها ، في حديث فضل العالم على العابد ، وقد سبق ذكره ، وأنَّ مصطلح العابد الذي ورد في الحديث ، يؤدي إلى فهم معين في ذهنية الصَّحابة في ذلك الزمان ، إذ ينصرف الفهم إلى أولئك العباد من اليهود والنصارى والمجوس ، وغيرهم من الهندوس والبوذيين ، الذين انسحبوا من المجتمع وتحوصلوا في الأديرة والبيع ، والصوامع ، هرباً من تغيير كل أوجه الحياة ، وإصلاحها ، بحجة تزكية النَّفس.

و الإسلام – في تلك المرحلة – كان في حاجة إلى إخراج هؤلاء إلى شعب الحياة لتزكيتها ، و إعمار الأرض وربطها بقيم السماء.

وقد ظهر هذا الانحراف في هذا العصر في ثوب جديد ، عندما هجرت البشرية أماكن العبادة ، وانقطعت في مؤسسات الدولة والمجتمع ، وأصبح شعارها العمل الممزوج بالعلم الدنيوي فقط ، ولكنَّه عمل لا يبنى على العلم الشَّرعي ؛ فهذا الوضع أشبه ما يكون بأحوال العباد في زمن الصَّحابة مع اختلاف الميدان ؛ فمثل هذا الفصام النكد بين العلم الشَّرعي والعمل والحال لا يوصل المرء مدارج الكمال.

إذا كان العباد قد عمروا قلوبهم –كما يعتقدون – وخربوا بهذا الانقطاع كل أوجه الحياة ، فإنَّ المجتمعات الحديثة اليوم قد عمرت كل أوجه الحياة ولكِنْ أفسدت القلوب وأتلفت الأعصاب.

فالمنهج الصحيح ، هو أن يربط العمل بالعلم الشَّرعي وعندها فقط يكون العلم المختلط بالعمل وسيلة من وسائل تزكية النَّفس ويصدق على هذه الأمَّة- التي تكون قد ساهمت في بناء الحضارة الإنسانية- قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنعام : ١٦٢].

الخاتمة :

تتمثل أهم النتائج في التالي :

أولاً : يعد الوحي الذي نزل على كل الأنبياء وخاصة القرآن الكريم هو مركز العلوم والمعارف والمسدد لكل المناهج القائدة العقلي منها والتجريبي الحسي في بناء الحضارة الإنسانية التي تحقق السعادة للبشرية في الدنيا والآخرة.

ثانياً : ما أدي إلى تأخير الأمة الإسلامية وفقدانها للشهود الحضاري هو بعض المفاهيم المنحرفة لنصوص الكتاب والسنة المتعلقة بمقومات الحضارة.

ثالثاً : مفهوم ذكر الله مفهوم واسع يسع كل أوجه الحياة لا كما يظن بأنه منحصر في اللسان وفي الكهوف والهمهمات.

رابعاً : الاختلاف حول أيهما أفضل العلم أم العمل ؟ يعد معوقاً من معوقات بناء الحضارة ، فالنصوص الواردة في ذلك من الكتاب والسنة فهمت خطأ بسبب القراءة التجزيئية للنص مما أثر سلباً في مساهمة المسلمين في بناء الحضارة الإنسانية خاصة في عصر العلم.

التوصيات :

أولاً : إعداد موسوعة علمية تعكف على استخلاص مقومات الحضارة عبر تاريخ الأنبياء والرسل.

ثانياً : تقديم دراسات مقارنة ومعمقة بين الحضارات المادية وتلك التي قامت على الوحي للبحث عن المشتركات وإحداث مقاربة.

ثالثاً : توجيه طلاب الدراسات العليا وبحوث التخرج للكتابة في دور الأمة في الشهود الحضاري من خلال نصوص الكتاب والسنة.

المصادر والمراجع :

[١] أحمد بن سلامة بن جعفر أبو عبد الله القضاعي ، مسند الشهاب ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٢ ، ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م.

[٢] ابن الإمام ، محمد بن محمد ، سلاح المؤمن في الدعاء والذكر ، تحقيق ، محيي الدين ديب مستو ، دار ابن كثير - دمشق – بيروت ، ط١ ، ١٤١٤هـ ١٩٩٣م

[٣] ابن القوطية ، كتاب الأفعال ، المحقق : علي فوده ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ط٢ ، ١٩٩٣ م.

[٤] ابن قيم الجوزية ، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ، إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان ، تحقيق ، محمد عزير شمس ، خرج أحاديثه : مصطفى بن سعيد إيتيم ، دار عالم الفوائد - مكة المكرمة ، ط١ ، ١٤٣٢ هـ.

[٥] ابن قيم الجوزية ، محمد بن أبي بكر بن أيوب ، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط١.

[٦] ابن قيم الجوزية ، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله ، الفوائد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط٢ ، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.

[٧] ابن القيم ، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله ، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، تحقيق محمد حامد الفقي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط٢ ، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.

[٨] ابن القيم ، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله إغاثة اللهفان ، تحقيق محمد حامد الفقي ، دار المعرفة ، بيروت ، ط٢ ، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م.

[٩] ابن تيمية ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ، التحفة العراقية في الأعمال القلبية ، المطبعة السلفية – القاهرة ، ط٢ ، ١٣٩٩هـ.

[١٠] ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم ، الاستقامة ، تحقيق محمد رشاد سالم ، جامعة الإمام محمد بن سعود ، المدينة المنورة ، ط١ ، ١٤٠٣هـ.

[١١] ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم ، الزهد والورع والعبادة ، تحقيق حماد سلامة ، محمد عويضه. مكتبة المنار ، الأردن ، ط١ ، ١٤٠٧هـ.

[١٢] ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم ، كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في التفسير ، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي ، مكتبة ابن تيمية ، ط٢.

[١٣] ابن تيمية ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ، أمراض القلب وشفاؤها ، المطبعة السلفية – القاهرة ، ط٢ ، ١٣٩٩هـ

[١٤] ابن حجر ، أحمد بن علي ، فتح الباري شرح صحيح البخاري ، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار المعرفة - بيروت ، ط١ ، ١٣٧٩هـ

[١٥] ابن حنبل ، أبو عبد الله أحمد بن محمد الشيباني ، مسند الإمام أحمد بن حنبل ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط ، وآخرون ، مؤسسة الرسالة ، ط١ ، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م

[١٦] ابن رجب ، عبد الرحمن بن أحمد ، جامع العلوم والحكم ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط - إبراهيم باجس ، مؤسسة الرسالة – بيروت ، ط٧ ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

[١٧] ابن عاشور ، محمد الطاهر بن محمد ، التحرير والتنوير ، الدار التونسية للنشر – تونس ، ط١ ، ١٩٨٤ هـ

[١٨] ابن عبد البر ، أبو عمر يوسف بن عبد الله ، التمهيد ، تحقيق مصطفى بن أحمد العلوي ، وزارة عموم الأوقاف ، المغرب ، ط١ ، ١٣٨٧هـ.

[١٩] ابن عطية ، أبو محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي ، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ط١ ، ١٤١٣ه-ـ١٩٩٣م.

[٢٠] ابن كثير ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر ، تفسير القرآن العظيم ، تحقيق ، محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، منشورات محمد علي بيضون – بيروت ، ط١ ، ١٤١٩هـ.

[٢١] ابن ماجة ، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ، سنن ابن ماجه ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط وآخرون ، دار الرسالة العالمية ، ط١ ، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.

[٢٢] أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي ، جامع العلوم والحكم ، دار المعرفة ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٨هـ.
[٢٣] أبو حاتم ، محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي ، صحيح ابن حبان ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٢ ، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.
[٢٤] أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق ، سنن أبي داود ، تحقيق : شعَيب الأرنؤوط - دار الرسالة العالمية ، ط١ ، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م
[٢٥] أبو طالب ، محمد بن علي بن عطية ، قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد ، تحقيق : د. عاصم إبراهيم الكيالي ، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان ، ط٢ ، ١٤٢٦ هـ -٢٠٠٥ م.
[٢٦] أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني ، حلية الأوَلياء ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط٤ ، ١٤٠٥هـ.
[٢٧] أحمد بن عمرو بن أبي عاصم الشيباني أبو بكر ، الزهد لابن أبي عاصم ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، محب الدِّين الخطيب ، دار الريان للتراث ، القاهرة ، ط٢ ، ١٤٠٨هـ.
[٢٨] البخاري ، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله ، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري ، تحقيق : محمد زهير بن ناصر الناصر ، دار طوق النجاة **" مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي "** ، ط١ ، ١٤٢٢هـ.
[٢٩] البخاري ، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله ، الأدب المفرد ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، لبنان ، ط٣ ، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.
[٣٠] البيهقي ، أبو بكر أحمد بن الحسين ، شعب الإيمان ، تحقيق السعيد بسيوني زغلول ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ، ط١ ، ١٤١٠هـ.
[٣١] الترمذي ، أبو عيسى محمد بن عيسى ، سنن الترمذي ، تحقيق : بشار عواد معروف ، دار الغرب الإسلامي – بيروت ، ط١ ، ١٩٩٨ م.

[٣٢] د. جورج عطية : من حضارتنا ، منشورات دار النشر الجامعية – بيروت ، ط١ ، ١٩٥٦ م.
[٣٣] الرازي ، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي ، مفاتيح الغيب = التفسير الكبير ، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ط٣ ، ١٤٢٠ هـ.
[٣٤] الزرقاني ، محمد بن عبد الباقي بن يوسف ، شرح الزرقاني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١١هـ.
[٣٥] الزمخشري ، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد ، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، دار الكتاب العربي – بيروت ، ط٣ ، ١٤٠٧ هـ.
[٣٦] السعدي ، عبدالرحمن ناصر ، تفسير السعدي ، تحقيق ابن عثيمين ، مؤسسة ، الرسالة ، بيروت ، ١٤٢١ط١ ، هـ-٢٠٠٠م.
[٣٧] السيوطي ، عبد الرحمن بن أبي بكر أبو الفضل ، الديباج على مسلم ، دار بن عفان ، الخبر ، السعودية ، ط١ ، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.
[٣٨] الشنقيطي ، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني ، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت – لبنان ، ط١ ، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ مـ.
[٣٩] الطحاوي ، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة ، شرح مشكل الآثار ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، ط١ ، ١٤١٥ هـ ، ١٤٩٤ م
[٤٠] عبد الله بن محمد أبو بكر القرشي ، التواضع والخمول ، تحقيق محمد عبد القادر أحمد العطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.
[٤١] العيني ، أبو محمد محمود بن أحمد ، عمدة القاري شرح صحيح البخاري ، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
[٤٢] الغزالي ، محمد بن محمد أبو حامد ، إحياء علوم الدِّين ، دار المعرفة ، ط١ ، بيروت.
[٤٣] القرطبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد ، الجامع لأحكام القرآن ، تحقيق : أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش ، دار الكتب المصرية – القاهرة ، ط٢ ، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م

[٤٤] القرطبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن فرح الأندلسي التذكار في أفضل الأذكار ، تحقيق : عبد القادر الأرناؤوط ، دمشق ، ط٢ ، ١٣٩٢هـ.
[٤٥] القزويني ، محمد بن يزيد أبو عبد الله سنن بن ماجه ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الفكر ، ط١ ، بيروت.
[٤٦] القضاعي ، أبو عبد الله محمد بن سلامة ، مسند الشهاب ، تحقيق ، حمدي بن عبد المجيد السلفي ، مؤسسة الرسالة – بيروت ، ط٢ ، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٦م
[٤٧] الكلبي ، يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف ، تهذيب الكمال في أسماء الرجال ، تحقيق : د. بشار عواد معروف ، مؤسسة الرسالة – بيروت ، ط١ ، ١٤٠٠ – ١٩٨٠م.
[٤٨] محمد الحمراني ، السياسي المسلم ، مجلة الشبيبة ، الإصدار الرابع عشر-ربيع الثاني ١٤٢٥هـ.
[٤٩] محمد بن محمد بن علي همام راجي الله سرايا بن داود ، سلاح المؤمن في الدعاء ، تحقيق محي الدِّين دي ، دار ابن كثير ، دمشق ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.
[٥٠] مسلم ، ابن الحجاج أبو الحسن القشيري ، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ط١.
[٥١] المناوي ، عبد الرؤوف ، فيض القدير ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ، ط١ ، ١٣٥٦هـ.
[٥٢] النووي ، أبو زكريا يحيي بن شرف بن مري ، شرح النووي على صحيح مسلم ، دار إحياء التراث ، بيروت ، ط٢ ، ١٣٩٢هـ.
[٥٣] النيسابوري ، محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم ، المستدرك على الصحيحين ، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١١هـ-١٩٩٠م.